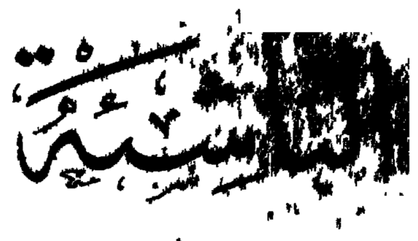


وضعه

شارل وانير

صاحب «روح الاعتدال»

ترجمة

حافظ نجيب

مترجم «روح الاعتدال» و«غاية الانسان»

يطلب من ملتزم طبعه ونشره

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٣ هـ = ١٩١٥ م



وضعه

شارل وانير

صاحب « روح الاعتدال »



مترجم « روح الاعتدال » و « غاية الانسان »

يطلب من ملتزم طبعه ونشره

نجيب متري

صاحب مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

١٣٣٣ هـ = ١٩١٥ م

اهداء الكتاب

الى محمود بك أبو النصر المحامى

سيدى الاستاذ الفاضل

البذور إذا غرست فى التربة الجيدة تنتج وتثمر ، وكذلك المعروف إذا أُسدِيَ إلى غير ذى نفس خبيثة يؤثّر فيه فيحتفظ بذكره . وليس غريباً أن تمنّ وأنت رجل الفضل ، وإنما أن يذكر مثلى تلك المنّة فى زمان عُرِف كثير من أهله بالجحود ونكران الجميل

لقد تقدّمتَ للدفاع عنى حين فقدتُ الأنصار ، فقلت فى نفسى رجل من المحاماة يؤدّى واجباً إنسانيًا ، ولكن حين رأيتك تفحص نفسى ، وتحلّل معدنها بدراية ومهارة أمام القضاء ، عرفتك عالماً من علماء الطبائع فأكبرتك . وما لُمس من حرارة نفسك ونهضتها لإنقاذ دخيل على الأدب ، إكراماً للحرفة التى احترف ، وللسبيل التى طرق ، ذلك أبقانى أحس بتلك الحرارة إلى هذه اللحظة ، وشجّعنى على الالتصاق بالأدب وإن كنت لا أزال دون رجاله فى كثرة البضاعة وجودتها ، وفى القيمة الشخصية

وإذا كان حبّ طفلتى هو الذى نفث فيّ هذا الروح ورغّبنى فى الاعتصام ، فإنك بعملك الواجب ، وبما أظهرت من العواطف الانسانية ، تحيي تلك الروح وتقوّيها ، وتملأ نفسى الخاملة نشاطاً وفتوّة ، وتسوقنى إلى حب الحياة والاجتماع ، وإلى خدمة الانسانية من طريق الأدب

واذا أنا حرمت ابنتي هذه الهدية واختصصتك بها ، فأنا لا أجني عليها ولا أتّهم بالتبديد ، لأنهـا هي ايضاً مدينة لك ضمناً بالمنّة أسيرة ذلك الفضل القديم . وإنها لتبتهج بعرفان الوفاء من خصال أبيها أكثر من ابتهاجها بالاهداء إليها ، بل إنَّ في هذا لدرساً عمليّا يهذّب نفسها ويرقّق عواطفها ، ويحضها على التكمُّل بالاقتداء وعلى التطبُّع بالتحبيذ والنحو

فكن يا سيدي الأستاذ طيّب النفس عند القبول ، مطمئناً لهذه التقدمة ، فالباعث عليها قدر حقّك من الفضل ، والواجبَ علينا من الإخلاص والوفاء .

نفع الله بك الأدب والفضل ، وجعلك مثالا حيّ للمروءة وعلو الهمة . أنت رجل والرجال قليلون ؟

المخلص

حافظ نجيب

٧ يناير سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة للمترجم

الناشئ لأوّل عهده بالحياة كالغريب فى المدينة الواسعة، يتهيّب أهلها، ويجهل دروبها، يبحث ولا يجد، وينظر ولا يرى، ولكنّ له من دهش المفاجأة وعدم الاعتياد عذراً مقبولاً

والمدينة لا تماثل الحياة إلاّ مماثلة الذرّة الكون، لأنها ثابتة منظورةٌ ومحصورة، أما الحياة فصروفها جمّة، وأحوالها متبدلة، ومناهجها تؤدّى إلى الفضل والهناء، كما تدهورِ الى السفه والشقاء، والعقول عاجزة عن حصر ما فيها عجزها عن إدراك ما وراء المنظور. فما العبرة إذن بالذى فى الحياة من مختلف الأحوال الظاهرة والخفية، وإنما بالتمييز بين منافع المحسوس ومضارّه، وبين ما يؤدى إلى الغاية منها وما يدفع إلى قرار الهاوية

والعجز عن حصر أحوال الحياة لا يمنع عِرفان المعلوم منها والملحوظ، لأن النور الضئيل خيرٌ من الظلام الحالك، ولأن المعرفة القليلة أفضلُ من الجهل التام

ولما كانت حال العالم، فى هذا الآن، يشكو منها كل الناس،

والسبب الأوّل فى فساد الأخلاق هو الجري على منهاج الغير، والاقتداء به فى القول والعمل، ولمّا كانت القدوة تؤثّر تأثيرا ثابتاً فى نفس الناشئ وفى أخلاقه، رغب الناس بعد عموم الضرر، فى منع انتقال الأمراض الاجتماعيــة الى الناشئين، وطمحوا أيضاً إلى إصلاح الحال الفاسدة، بتكوين مجتمع فاضل، يمثل الانسانية الصحيحة، وتُجتلى فيهِ الحياة الفاضلة

بحثوا عن أسباب هذه الأمنية، فلم يجدوا بينهـا أفضل من الاحتفاظ بأخلاق الناشئة، قبل تطرُّق الفساد اليها، ومن حصر العيوب المحسّة، ولفت الأنظار إليها، ومنع الشبان منها، ولم يجدوا خيرًا من التربية النافعة، أساسها البساطة، ودعائمها الاستقامة، والشرف، وحب الغير، وطلب الـكمال

الداء إذا أزمن يضعف حسّ المريض إياه، ويقلّ ألمه منـه . ولـكن الهيئة الاجتماعية، على العكس من هذه الحقيقة، ديّئة من دهور، ومع ذلك فلا زالت شعورها يتضاعف، وحسّها الألم يزداد من يوم إلى آخر. إن الحقائق لا تتناقض، والنظريات الصحيحة لا شذوذ معها، ولا بدّ من دوام صحتها فى كل الأحوال والأزمان . فما يُرَى من شعور الناس من سوء الحال، مع إزمان الفساد، ومن حسّهم الألم منها، إنما هو لازدياد الأمراض من حين إلى الآخر،

ولتبدّل حال الجسم المريض ، ولتضاعُفِ عوامل الألم والتأثير فيهِ .
فدوام الشعور بوطأة الأدواء الاجتماعية ، واستمرار الشكوى منها ،
ليس فيهما شيء يخالف مقتضيات الإزمان والاعتياد

إنَّ إلفة العين الخطأَ لا تجعلها تلحظه ، فعجيب ، مع ثبوت
هذه الحقيقة ، إدراكُ الناس سوءَ الحال وسقمَ الأخلاق ، مع اعتيادهم
ما أودى بالآداب الصحيحة ، وما ساق العالم إلى حيث هو من
الضعف والسقوط ! والحال أنه لا مكان للعجب ، فإن إلفة العين
الخطأَ لا تجعلها تميّزه ، متى لبثت لا تتعمد البحث عنهُ ، أمّا
ومنغّصات الحياة الراهنة زادت إلى حدّ أزعج النفوس المستكينة ،
ونبّه العقول الغافلة ، فإن الألم الحادّ هو الذى بعث على البحث عن
مكانه ، وعن أسبابه . فما حال العين ، تمرّ سهواً على الخطإِ فلا تلمحهُ ،
كحال الملدوغ يبحث عن مكان اللدغ وعن الحشرة القاتلة ، وما شعور
الإنسان فى الأمرين يتماثل

المنتجُ من هذا وذاك كون حسّ الناس سوءَ الحال ، وشعورهم
بالضعف ، وإدراكهم مواضع الاعتلال ، ما هي إلاَّ نتائج طبيعية ،
لازمةٌ ما تقدّمها من الأحوال السيئة ، لابدّ من وصول الناس إليها
جميعاً . فما الغرابة إذن فى استقراء الحال ، ولا فى البلوغ إلى تلك
النتائج ، وإنما هي فى عدم إدراك هذه الحقائق المؤلمة قبل هذا

الحين ، بينما الشكوى من منغّصات الحياة وعموم الفساد ، يكاد دويّها يزلزل الأرض والسماء

كنت مريضاً، وكنت متألماً من المرض، ومن مفارقة طفلتى ، ومما عسى أن يصيبها إذا تعذّر الشفاء وفرّق بيننا الموت ، قبل أن تحوّطها عنايتى ، وقبل أن تتهيأ للحياة بالتربية والاختبار . ولما كان تذكّر الهموم، أو تمثّل المصائب، يُشعر النفس بوطأتها ، ويضاعف ثقلها ، لهذا كنت أفرّ من التفكير إلى المطالعة ، ومن الألم إلى الاغتباط بمسامرة الكتب

أما الصحف فإنها نبهتنى إلى الزلاّقة التى يزلق عليها الناشئون ، وأما الكتب فقد عثرت بينها على هذا الكتاب (الناشئة) لكاتبه شارل وانير. وكأن روحه عند كتابته كانت تمثّل ما يشكو منهُ العقلاء الآن ، من سوء حال الناشئة فى هذا البلد الوديع ، أو كأن الفساد الذى تطرّق إلى زهرة هذا المصر، هو بعينه الشامل. تمثلهم الكاتب الناضج ، عند حصره العيوب والأدواء الاجتماعية

أعجبنى الكتاب، فاخترت من أفكار الكاتب ما رأيت الناشئة فى حاجة إليه ، وإصلاح الحال السيئة يستدعيهِ. فعسى أن يكون فى نشر هذه المباحث فائدة تؤمل، أو نفع يشمل م؟

المترجم

الباب الأول

البحث الاول

تباين الأحوال

عند انقضاء فصل الشتاء يجوس البستانيّ خلال أشجاره ، يطيل النظر إليها مستطلعاً حالها من الحياة والنموّ ، باحثاً عن منابت الأغصان والأوراق ، متسائلاً عما سيحدثهُ فيها الربيع ، فصل الحياة والإثمار

وهذه الرياضة التي يمتزج فيها اشتغال البال بالاطمئنان ، واليأس بالأمل ، ليس أدنى إلى مماثلتها من التطلع إلى حال الناشئة ورؤية الشابّ في أوّل أدوار الحياة مهموماً يفكّر في أمر المستقبل ، وفيما وراء حجبه من الرفعة أو السقوط ، من الهناء أو الشقاء

وكما أن عين الإنبات تبقى وراء قشور الأغصان ، تبحث عنها الباصرة وتتلمّس تعرُّفها قبل أن تظهر وتورق ، فكذلك (المستقبل) يكون عادة محجوباً وراء أحوال الحاضر ، إلاَّ أن هذه تشف عنهُ وتشير إليهِ . والناشئ لا يكفّ عن استطلاعه وتصويره ، ولو بالتخيل والتخمين

وما للشبيبة من المكان فى الهيئة الاجتماعيــة ، ومن التأثير فى أحوالها ، يحدو إلى العناية بأمرها ، ولفت النظر إلى الأزمان التى حدثت فيها الانقلابات ، ويحمل الفكر إلى تدبُّر هذه التطوُّرات ، وأسبابها ، ونتائجها ، للاستفادة منها

ولكن من الخطأ العظيم الخلطَ بين أدوار حركة النوع الإنسانيّ وتطوُّراته وبين الأجزاء التاريخية للزمن ، التى وضعها الإنسان وسمَّاها القرون ، وافترض لكلٍّ منها طفولة وشيخوخة . فما دامت الأحوال الحادثة لا تتفق مع مقتضيات هذا التقدير لا يكون لهذا التشبيه مكان من الحقيقة . إن قروناً كثيرة تمتاز نهايتُهــا بحركات عنيفة وحوادثَ خطيرةٍ ، لا تتناسب مع الشيخوخة ، بيد أنّ عصوراً أُخرى بدأت فجر حياتها وزمانَ صباها بما يُشير إلى الضّعف والسقم ، وبما ينافى مقتضيات الصّبا والفتوّة . وإنى لأبحث عن رابطــة الاتصال بين النوع الإنسانيّ وهذه الأجزاء الزمنية فلا أجدها ، ولا أشعر إلاّ بعكس ما أُنقّب عنهُ

ها أمامنا التاريخ ، مرآة الزمن ، نبصر فيها كل أحوال العالم فى العصور الخاليــة ، فليس بينها إلاّ مثال ما نعرفهُ ونراه فى أحوال الإنسان ، نشاطٌ عند القوّة والصبا ، ورزانةٌ عند الرجولة ونضج العقل ، وفتورٌ وضعفٌ عند الشيخوخة . ولمّا كان النوع الإنسانى

يتجدّد بالتناسل المستمرّ، كان القريب من العقل جمعَهُ في كل لحظ من اللحظات بين فئات الشباب والشيوخ، فلا يكون للنوع بخصوصه شباب معروف، ولا كهولة محدّدة

الاهتمام بالمستقبل يُشغل كل الناس، ولكن أَولاهم بهِ من يدخل حديثاً باحة الحياة، لا من هو على طرفها الآخر يودّعها وداع الراحل لا يعود. فلهذا يعنى المصلحون بالناشئة، وبتدبّر ما تصلح بهِ ليصلُحَ بها الاجتماع. فليس من الفضول البحث عن حال الشاب في البيئة التي يعيش فيها، ولا منهُ معرفةُ ما يمكن أن يصادفهُ من الأخطار، أو ينصرفَ إليهِ من الميول والآمال، ولا فحصُ ما تقتضيهِ حياتهُ وتفرضهُ عليهِ من الواجبات

ولما كانت الحال تستدعى إمعان النظر، في كل هذه المسائل الحيويّة قبل الحكم فيها، لهذا كان من الضرورى تعيين ما يحسن أن تكون عليهِ الحال، ثم درسُ أحوال الشباب في هذا العصر، ثم مقارنةُ ما هو كائنٌ بما يجب أن يكون، حتى يتأتى للباحث معرفةُ ما يجمل انتخابهُ من الأحوال الراهنة، وإدراكُ علل الفاسد منها لإصلاحه، أو للتعوّض منهُ ما يكفل الرقيّ والكمال

***

من أصعب الأمور توحيدُ المبادئ المختلفة، وحصرُ أعمال

النوع الإنساني عند نقطة نظر واحدة . ولكنّهُ يسهل فى الغالب النظر الى عصرٍ من العصور نظرةً عامة ، لأنّ صورتهُ الإجمالية الصادقة تدنو من الصورة الحقيقية ، وتُشير إلى ما كان فيهِ من الميول والمحاسن والأعمال

فإذا نظر الباحث إلى ما فى عصرنا هذا ، من الأحوال الثابتة له ، نظرة عامة ، ما أمكنهُ إلاّ تسميتهُ عصرُ (العلم المنتج) . فإن العلم لم يصل فى زمن من الأزمان إلى ما هو عليهِ فيهِ ، حتى أمكن الإنسانُ لأوّل مرّة أن يسخِّر قوّةً لتنفيذ رغباتهِ ، ولتحقيق آماله

يقولون إن النوع الإنسانيّ يسير فى طريق واحدة لا نهاية لها ، وإنّ لكل عصر من العصور وقفة عليها ، تشير إلى نهاية ذلك العصر وإلى شوطه فيها ، والحال أنّ حركة الجماعات لا تكون دائماً إلى الأمام ، فقد يلبث حيناً من الزمن بدون تقدُّم ، كما يجوز أن ترجعَ إلى الوراء ، فتتأخر عن آفاقها المعروفة وتتدهور من منازلها فى الحياة . ويجوز أن تكون نقط الاتجاه الأساسيّة غير واحدة ، فما تقصد إليهِ أُمّة فى عصر ، وتظنّهُ نهايةَ الكمال ، قد لا تُعنى بهِ أُمّةٌ أُخرى ، ولا تنظر إليهِ بتلك العين ، وتنجع إلى ما ترغب فيهِ على غير درَبِ الأولى

فهنالك عصور تحضّر وعمران ، وأزمانُ تأخُّر وانحطاط . وبينما

يسود الدّين فى أحدها ، ويكون له تمام النفوذ وكلّ التأثير فى النفوس والعقول ، إذا بآخر يكون هذا السلطان فيهِ للحكمة ، أو للشعر ، أو للفنون والصناعة ، أو للحرب . وبينما يشير التاريخ إلى ما كانت عليهِ الفضيلة والنشاط ، فى زمنٍ بخصوصهِ ، إذا بهِ يدلّ على الدّعارة فى زمن آخر ، وإلى تخنُّث أهله . وكلّ هذه العصور المختلفة الأشكال والصُّوَر تُبرِزُ مميّزات أبنائها فى مرآة الزمان ، وتَنسبُ المجدَ والسؤدد طوراً إلى الشعراء ، وطوراً إلى الفلاسفة ، ومرّة إلى رجال السياسة والحرب ، وأُخرى إلى الخطباء ، وتارة إلى المجانين ، وطرقةً إلى المشعوذين

ليس من يُنكر على الإنسان رغبته فى نيل الممكن من الكمالات ، فى كل عصر . ولما كان الأمر يتعذر لتعذر حصر الرغبات ، وتحديد انواع الكمالات ، ولكثرة اسباب الرقيّ ، وارتباك وسائل تحقيقها ، لهذا اقتصر كل عصر على تحقيق ما تنصرف اليه النفوس من هذه الأسباب ، ويكون له التأثير التام فيها ، بحيث تُضحّى إلى جانبه بلا أسفٍ كلّ ما عداه منها . هذا هو السرّ فى عدم اتجاه كل أفراد النوع الإنساني إلى غرض واحد ، من طريقٍ مفرد .

فإذا كان عصرٌ ما ينفرد بانصرافه إلى تحقيق غرضٍ بخصوصه ،

فإنهُ ولا بدّ يمتاز على غيره من العصور الأخرى ، بالتبريز في هذا الغرض المختار ، ولكنّ هذا لا يمنع أن تكون لغيره الأفضليةُ في سببٍ آخر من أسباب الرقيّ والمدنية . وإن حصرَ عمل الإنسان ، لتحقيق غاية واحدة ، دليلٌ على عدم عنايته بالغايات الأخرى ، وعلى إهماله إيّاها . والأجيالُ كالإنسان في هذه الحال ، حتى ليتأتى جعلُ هذه الحقيقة قاعدة تامّة تُقاس بها الأحوال ، فتساعد الباحث على إنتاج وتعليل أسباب تأخّر السالفين عن أهل هذا العصر في العلم ، مع تبريزهم في كثير من الأمور ، ونبوغهم فيها نبوغاً يعجز عنه المتأخرون

هذه القاعدة هي التي تُرشد إلى علّة ما يشكو منه الإنسان ، من عيوب وعورات المدنية الراهنة . لقد انصرف أهل هذا العصر إلى العلم المنتج ، لا لمجرّد المَيْل مع هوى النفس المتقلِّبة ، وإنما بحكم الضرورة والاحتياج . ولمّا كان مرور الزمن أفنى الأساس الاجتماعية والمعتقدات القديمة ، كان من الضروريّ تدعيمُ ما بقي متزعزعاً منها ، بما يتلاءم مع روح العصر ، وبما يكفل حاجات الإجتماع في نهضته إلى المدنية ، وفي نجعه الى الحضارة

ولما كان الإنسان لم يدرك بعدُ ما عرفه الآن من الحقائق ، كان كل اعتماده على التجاريب والاختبارات . ومع ما هو عليه من

الحقارة والضعف بالنسبة إلى العمل العظيم الذى أقدم عليه ، ومع ما هو ثابت من قِصَرِ عمره إلى جانب عمر الزمن الغيرالمحدود ، لم تضعف همته ولم يقلّ عزمه ، على قلّة الوسائل التى يستعين بها على قضاء لباناتـه ، وعلى خطارة وعظم المهمة التى انصرفت نفسه إلى نيل الغاية منها

اعتمد الإنسان على يديه فى اللمس ، وعلى عينيه للإبصار ، وعلى عقله للفهم ، وعلى قلبه للشعور والتصديق ، ثم جدّ فى عمله ، فانتقل بالتدرّج من القريب المدرك إلى البعيد المجهول ، حتى وصل إلى ما لم يكن يؤمّل بلوغه ، وحتّى أدرك حدًّا لم يكن يطمع بالوصول إليه . فلو لم يكن للنوع الإنساني غيرُ هذا العمل المجهد ، وغير الوصول به إلى تبديد غياهب الشكّ وظُلُمَات الجهل ، وإلى اجتلاء فجر الحقيقة ، لكان العمل حقيقاً بتشريفه ورفع قدره ، وبالتّحليق به فوق ذرَوَات المجد والسؤدد

أُصبح فى مُتناول الإنسان ، بفضل هذا العمل ، كثيرٌ من الثمرات النافعة ، بعد أن جهلها العالم أزماناً ، واستعصت عليهِ حيناً . فعلماء الفلك توفّقوا إلى اكتشاف أسرار السماء ، وإلى الوقوف على عظمة الكون ، فأدنوا من أفكار الناس ما كان يُعدّ فوق إدراك العقل البشريّ . وعلماء تقويم البلدان عرفوا فشرحوا ما تهمّ معرفتهُ ،

من أحوال الأرض التي نعيش فوقها، وننتفع بسطحها . وعلماء طبقات الأرض استنطقوا ما في بطون هذه، والصخورَ والقبورَ، فصوّروا ما درس من حياة الأمم البائدة، وأحوال العصور الخالية. وعلماء النبات والحيوان لا زالوا عاكفين على البحث، وعلى شرح ما في تلك العوالم من الأسرار المدهشة، والنظامات العجيبة . والطب وعلم أحوال النفس لم يتركا سرًّا من أسرار الجسم الإنسانيّ، بدون إماطة اللّثام عنهُ لاجتلاء خافيه، فهوّنا على الإنسان مقاومةَ الأمراض ووقاية نفسه منها . والكيمياء وعلم الميكانيكا ساعدا على تقريب المسافات البعيدة، وعلى نقل الأثقال العظيمة، وعلى مضاعفة القوّة، فتضاعفت موارد الصناعة ووسائلُ العيش الرغد، وزادت أسباب الهناء والاغتباط . والكهرباء، تلك القوّة العجيبة، لا زالت تدهش العالم، ويتمّ بواسطتها من الأعمال ما يُعدّ من العجائب والمستحيلات

فلو عاد إلى هذا العالم رجلٌ من البائدين، ورأى ما ناله الإنسان من النّعم بفضل العلم، ما صدّق عقلُهُ ما تراهُ عيناهُ، والظنّ الأحوال الثابتةَ رُؤَى منام وأضغاث أَحلام . لا مراء في كون الإنسان، في هذا العصر، أحسن حالاً من جدّه البائد، وأعظم سعادة، وأكثر قوّة واغتباطاً . قلّتْ أمراضه وتلطّفَتْ آلامه، فيركَبُ ما كان يسحقهُ، ويستخدم النار، وينتفع بالبخار، ويسخّرِ البحر لخدمتهِ،

ويمتطي الهواء برغبته . وقد تعلّم من التاريخ الحكمة ، ومن تجاريب الدهر التسامحَ والرأفة . وهو في وطنه تحرسه القوات المسلّحة ، وبين الجماعة تحميه العدالة من بغي الباغين وشرور المعتدين

هذا ما يجب أن يكون عليه العالم من الهناء ، إذا وافقت النتائجُ المقدماتِ ، وتحسّنت الحال بتوفّر المقتضيات . أمّا والحال عكسَ ما بَهرَنا به النظر ولفتنا إليهِ الفكر ، فان الناشئ يقف حائراً أمام مشهد العالم ، ومتهيّبا بين ارتباكات الحياة ، يُلهيه ما فيها من الخلل عمّا ذُكر من أنواع التقدم والرقيّ ، وأدواء الاجتماع عما عليه العمران . كلّ هذا مع بلوغ العلم هذا الشأوَ الذي يكفُل تحقيقَ أمانيّ النفوس الكبيرة ، من انتشار السلام ، والأُخوّة والمحبة

فأيّ عقل يتمثل ما في الحياة من الأحوال المتباينة ، وما فيها من المحاسن والعيوب ، وأسباب الرفعة والسقوط ، ولا يقف هيّاباً قبل تورّطه في العيش بين الجماعة ، والحياةِ في معترك الحياة

البحث الثانى

أنواع من الخطأ العام

ليست حركات النوع الإنسانيّ منتظمةً ، ولا متساويةً فى كل الإتجاهات التى تستدعيها الحياةُ، ولكنه يتكوّن بالتدريج البطىء . فاذا هو وجّه كل قوته الى طريق العلم ، يلهيه هذا عن غيره من الأمور الأخرى

ولمّا كان العلم كثير المباحث ، غيرَ محصور ، فان المنصرف اليه لا يبرّز إلاّ فى أحد فروعه فقط ، وربما يقصّر عن الإلمام بكثير من مباحثه الجمّة ، وموادّه الغزيرة . وليست هذه الحال غريبة فى نوعها ، فان الشجرة ينفرد أحد غصونها بامتصاص الغذاء من الجزع ، ويبقى البعض الآخر بدون تغذية ، فيذبل ويضعف ، وربما يموت

أمّا والإنسان ينظر إلى الكون لتعرُّف ما فيه ، وتتسع أمامه دائرته غير المتناهيــة ، فإن العلوم تظهر أمامه أيضاً غير محصورة ولا محدّدة ، تماثلُ الكون فى عدم التناهى . فلهذا السبب الثابت بالتجربة والحسّ تفرّق الناس فى ناحيات الوجود ، يطلبون من أنواع العلم والعمل ، كلٌّ ما حلا له وتاقت إليه نفسه . والجري مع

مقتضى الحياة ، ومع حاجاتها المادية ، أفضى بطبيعة الحال إلى إطلاق الناس اسم الحادث على كل ما يمكن حسه من الأحوال ، واسم العلم على ما هو مدرك بالعقل ثابت بالتجربة والاختبار

ولكن الإنسان أهمل الطريقة العملية المثمرة ، بعد إلفتها والاستفادة منها ، وتنحى عن التقاليد القديمة ، مع ما فيها من الحسنات التي يجب الاحتفاظ عليها ، ترك ما اثبت وما قضت الإنسانية دهراً فى خلقه ، ثم قفز قفزاً الى الإستنتاج ، وإلى تقرير ما كان يجب الانتظار طويلاً قبل التفكر فيه ، فكانت حاله شبيهةً بمن يطرح ما فى يده من الخبز ، ليستعيض منه غيره مما فى سنابل القمح ، ولكن قبل نضجه وصلاحيته للطحن وعمل الخبز

فبترُ الحياة على هذه الصورة ، ورجوع الإنسان الى هذه الحال ، بعد أن ارتقت مداركه ، وبعد سيادته بما لديه من وسائل العلم والعمل ، مما خفض قيمته فى نظره ، ومما حصر الحياة فى دائرة ضيقة تكاد تلمس آفاقها اليد . وما الحياة تحصر ، وإنما هي العقول تضيق بالسفه وبالغباوة فتخيل إدراك ما لا يدرك ، وحصر ما لا يحصر

وليس من العدل نسبة هذا الشطط والتحول إلى فريق بخصوصه ، لأن حياة الجماعات غير مرتبطة بعضها ، بحيث تحركها

ارادة مفردة ، أو تبدل اتجاهها قوة واحدة . فكل فرد يعمل ما شاء ، بدون أن يتقيّد بإرادة غيره أو عمل . فإذا كانت نتائج أعمال الأفراد لم تماثل مع ما كان ينتظر منه ، فليس الخطأ منسوبا إلى فردٍ بذاته ، ولا إلى فريق بخصوصه ، ولا إلى العلم أيضاً لأن نسبة الفساد إليه حمق وجنون

وهذه الطفرة التى أزعجت حركة الحياة ، والتى منعت تأثير العلم فى أحوالها ، لم يكن للعلماء يد فى إحداثها ، لأنهم بطبيعة الحال أقلّ الناس حركةً وأبطأهم فى الحكم والتقرير ، على العكس من الكتّاب والفلاسفة ، فإنهم يضاربون بالآراء والأفكار على مثال المضاربات المادية

واستصغار الإنسان شأن نفسه واضح فى كل أحوال الحياة ، على شكل ضعف فى قوة الذكاء والإدراك . وسبب هذه الطامة وغيرها ، مما تطرّق إليه الفساد كعلم الأخلاق مثلا ، إنما هو حصر قوة العلم فى الماديات المنتجة الربحَ والكسب . ولو نقّب الباحث عن علة هذا الحصر ، وتحويل الأغراض إلى وجهة واحدة ما وجد منشأها غيرَ حب الذات ، فهو الذى استأثر بثمرات ما ضحي فى سبيل نهضة العلم ، وحوّل كل قوته إلى الإنتاج والإثمار ، فحوّله عن أغراضه الأساسية وغاياته السامية ، وجعله فى كثير من الأحوال

واسطة للأذى ، بدلاً من النفع

أُنظر إلى علم التربية مثلاً ، وإلى النتائج التى أدّى إليها ، إنّ الغاية منه تهذيب النفس وتقوية الإرادة ، ثم التمرين النافع ، فالتعليم العقليّ هو الذى ينير البصائر ، ويرقى ملكة الفكر ويوسع دائرة العرفان . ولكنّ الناس حسبوا التعليم وحده يكفى لتهذيب الأخلاق وتربية النفس ، ولتكوين الطبائع ، ولكل حاجات الحياة من النظام وحفظ الصحة ، فأغفلوا تدعيم الحياة بأقوى دعائم التربية

وإذا كانت التصورات والشعور قد تقيدت بسبب توهم العلم كافياً لكلّ شيء ، فإن دائرة الماديات قد تضاعف اتساعها ، حتى ليستحيل على الباحث أن يجد اكتشافا علمياً لم تكن نتيجته فى الصناعة . من الثابت أنّ الحياة المادية تحسنت أحوالها فصلُحت أحوال الغذاء ، والإضاءة ووسائلُ التدفئة ، ونقل الأخبار والسفر ، وعلى الخصوص التسلح

ومما يدعو إلى الأسف كون هذه الوسائل لم تحسّن فى الحقيقة حال الحياة ، وكانت سبباً فى كثير من أنواع الفساد الفاشية ، وفى الاستياء منها بحق . إنّ معدات الصناعة من آلات العمل ورؤوس الأموال صارت كثيرة لا يحصيها العد ، ولا تستطيع الإرادة

حصرَها فى دائرة نظام صالح . وقد نشأ بسببها ، وعلى غير المنتظر ، مشاكلُ اجتماعية جمّة ، وحروب طاحنة بين العمل والمال ، وبين العمال وأصحاب العمل ، حربٌ كانت سبباً فى كثير من آلام النوع الإنسانيّ ، وفى خلق الأحقاد ، وفى اختلال النظام وزعزعة أركان السلام

والاجتماع ، جرياً مع مقتضى العمل والصناعة ، دعا إلى تخطيط المدن العظيمة ، وإلى التحضّر على هـذه الصورة المنكرة ، حيث تجد إلى جانب الفاقة والعوَز الغنى والجاه والسؤدد . ولو اقتصر الأمر على هذه الحال لهان الخطب ، أمّا والمال يُبذّر فى الملاذّ والشهوات ، ويُصرف جزافاً لخلق أسباب اللهو والتسليـة والرفاهة ، بدون أن تكون من دواعى السعادة أو مقتضيات الحياة ، فكلها تصرّفات تُثير فى نفوس المعوزين ثائرة الحسد والحقد ، وثم النزوع إلى الفتن والثورات ، فضلاً عمّا يظهر بسببها من الأعراض التى تهدّد الأجسام بالعلل والأمراض الخبيثة

وحبّ الذات ، والتزاحمُ على المنافع ، والتنازعُ على البقاء ، مع رقيّ الصناعة وإجادة العمل ، خلقت الروحَ الحربية ووصلت بهـا إلى ما نراه من حالها المرعبة . وانتشار هذه الروح ، ورغبة كلّ حكومة فى التفوّق على غيرها ، يحملان على استنزاف الأموال من

الشعوب ، وعلى التفنّن فى خلق أسباب القتل والتخريب ، وعلى حشد الآلاف من الشبان الأقوياء ، وتعويدهم قتل النفوس ، وعلى تصوُّر الحق إلى جانب القوّة ولو كانت باغية ظالمة . وفى كل هذه الأحوال من الضرر ما لم يكن العقل ينتظر أن ينتجهُ بتأثيره فى رقيّ الصناعة

ووسائل النقل وتقريب المسافات البعيدة ، عوضاً من أن تكون داعيةً إلى تقريب الناس من بعضهم ، صارت سبباً للمباراة والمزاحمة ، فانقلب الغرض النافع منها إلى عكسهِ ، وأصبح سوء ظن الخلائق بعضهم يحول بينها وبين عموم الفائدة التى ترجّى منها . وها آلات التراسل تستعمل للمراقبة والمحاذرة والمباغتة ، أكثر من استعمالها للتفاهم والتقارب ، ولربط أواصر المودة بين الشعوب والأمم ، مع أن الناس جميعاً من نوع الإنسان ، خلق من الأرض ، وعليها يعيش وبها ينتفع ، وإلى باطنها يعود فتنحلل عناصر جسمه وتمتزج بالتراب وتكون منهُ .

فلو أن المفكّر ، الخاليَ من الغرض ، يقف أمام هذا العالم ، يفحص أحواله ، ويقارن بينها وبين مقتضيات الحياة وما يجب أن تكون عليهِ الحال ، لظنّ أن هنالك قُوَّةً مجهولة تعبث بأحوال الحياة ، وتوجّه إلى الشرّ والضرر كلّ قوى العلم ، التى اكتشفها

الإنسان وأراد بها الإفادة والنفع

إن العلم الصحيح لا يقصد إلى الشرّ أبداً ، والإنسان الذى يعتمد عليهِ ويتّخذه واسطـة للرقيّ لم يخطئ السبيل المؤدي إلى الغاية، وما الخطأ الذى أدّى إلى تلك الأحوال السيئة إلاّ فى توهّم كون التعليم وكسب الرزق يكفيان حاجة الإنسان، ويكفلان ارتقاء الإنسانيـة . وما الخطأ إلاّ فى تحويل قوى العلم إلى وجهة واحدة هى تحصيل حاجات العيش والترفّه من غذاء ولباس وتلذّذ

لـكل شيء غرضٌ منهُ ، فإذا انحرف عن سبيل هذا الغرض ، يتحوّل إلى الأذى بدلاً من النفع . فيكفى أن يقارن الباحث بعض أحوال الحياة بالغرض منهـا ، وبما تحوّلت إليهِ، ليُثبت بالدليل المحسوس كون هـذا التحوُّل علّة علل الحياة، وعقدة المشاكل الاجتماعية، بل سبب الغشاء الغاشى

ليس بين الناس من يجهل ما كان فى العصور السالفة من السلطان المطلق ، الذى يستأثر بالسيادة وبالتصرُّف فى شئون العالم. كان هذا السلطان تارة للدّين وباسمه ، فيتجاوز حدَّه غايةَ الدّين . ويمزج بينهُ وبين الشئون الأُخرى، وتارة للمال ، فيحوّل كلّ غايات الإنسانية والحياة إلى مسائل مالية ومشاكل اقتصادية ، وطوراً كان للقوّة والروح الحربية فلم تكن تعدُّ إلى جانبها كل أحوال

الاجتماع شيئاً ، الاّ ما يتعلق بالقوّة وبوسائل التخريب والقتل

والعقل يسلّم ، عن اقتناع ، بضرورة كل هذه الأحوال وبافتقار الاجتماع إليها ، ولكنها عند تجاوز حدود الغاية التي هي من أجلها ، تنقلب أذًى يصيب الإنسانيـة عامة ، وتصير شرًّا يشمل ضرره كلّ العالم . وبدلاً من أن تقصد إلى المصلحة العامّة ، تكون من خصومها ومناهضيها ، ويكون في كلّ قوّة منها نوع من حبّ الذات يهدّد كيان العالم

ليذكر الإنسان معلّمي الشريعـة الموسوية في عهد المسيح ، وكهنة الاعتراف في آخر عهد السفسطائيين بأثينا ، وليذكر علماء الطب والفلك ورجال التشريع أو الحرب أو المال في عصور كثيرة . فإن التاريخ يدلّ على كون العالم خضع في أزمان متفاوتة لهؤلاء الأفراد أو للمجامع التي يمثلونها ، خضوعاً لم يكن يتأتى للإنسان معهُ أن يتحرّك أو يحيا أو يموت ، إلاّ وفقاً لمشيئتهم ، كأنما هم أصحاب الوجود ، وكأن الإنسانيةَ متاعهُم أو ضحيتُّهم . والحال أنهم ما ظهروا إلاّ باسم الإنسانية وبدعوى خدمتها ، لا لسحقها ولا لاستعباد النوع الإنساني ، ولا تشويه وجه الحياة بما اقترفوا من المظالم وعملوا من الشرور . والعلّةُ ، في الوصول إلى نتيجة مخالفة غرض الدعوى ، إنما هي ابتعاد العامل عن مقتضى الغرض الأساسي من دعوته وعمله

والعاقل يخشى أن يكون هذا هو حظّ العلم أيضاً ، فإن من يتدبّر شئونَ الحياة لا يعتم أن يلحظ اطّراد عمل الإنسان : الوقوف على الحقائق المجهولة أو الغامضة ، ومضاعفة الأمل فى الوصول الى الغاية من الحياة . فإذا كان علم الإنسان يقف عند حد معين ، وإذا كان العلم هو واسطة الاتصال بين الإنسان والحقيقة ، يكون المنتج من هذا حصر الحقيقة وكل الحياة فيما يقف عنده العلم والتقرير ، ويكون كل ما عدا هذه التقريرات خيالا لا نصيب له من الحقيقة . وهذا باطلٌ ، وليس من يدرى حقارة علم الإنسان ، إلى جانب الحياة وما فيها من المدهشات والأسرار والقوى ، غير موجدها على تلك الصورة . وها عددٌ من أمثال هذه الإدعاآت الباطلة نثبتها هنا للدلالة بها على مخالفتها الواقع ، وعلى ما يهذى به النـاس

قال الاستاذ الألمانى (دى بواريموند) فى سنة ١٨٧٧ فى حفلة جمعت عدداً عظيما من العلماء والفلاسفة : « إن تاريخ العلوم الطبيعية ما هو إلاّ حقيقة تاريخ الإنسانية عامة . وما كان الناس يطلقون عليه اسم التاريخ إلى هذا العهد ، ما هو الاّ نتفٌ من تواريخ الحروب ، ومن خرافات الأمم التى تدعى الحضارة ، وتنتسب إلى المدنية » ومثاله قول بعض السالفين : « إن العلم والفلسفة

لا بدّ من بلوغها حدًّا يتمم كل حاجات الإنسان ، ويدلّ على أسرار الحياة . » ها هي الفلسفة صارت من المهملات إلاّ العلم فعسى أن يقوم وحده بهذه الحاجة ويبلغ ذلك الحدّ . . . . إنّ المأثور من القول ، وما يصادف هوًى فى النفس ، يؤثّران فى عقل الإنسان تأثيراً صادقاً ، وأظن ذلك القول السالف هو الذى دعا (برثلوت) العالم الفرنسى إلى قوله : « لم يترك العلم غامضاً ولا مجهولاً »

وهذه الأقوال الشاذّة تؤثر فى أفكار الهيئة الاجتماعية ، على اختلاف درجات من فيها ، تأثيراً عاماً ، وتفسد الأفكار وتبعدها عن الصواب

إن العالم يقطع أشواطاً بعيدةً ، قاصداً إلى الحقيقة النظرية ، ثم منها إلى الحقيقة العملية ، وهو فى طريقه هذه يترك للإنسانية ، مما اهتدى إليه من الحقائق الصادقة ، ما يرقى بها إلى أسمى من المنزل الذى هي فيه ، ومما يريح الناس من عناء العمل الشاق ، ويوفر من قواهم وأوقاتهم ، فقد استعاض الإنسان فى عمله من الأحياء الجماد ، وحلّت الآلات مكان ذوى الأشباح والأرواح

ولكنّ هذا الرقيّ الفني أفضى بكثير من الناس إلى الجرى مع مذهب الماديين ، فما عادوا يعرفون معنى الروح ، ولا يميزون بين الجماد والإنسان ، وجعلوا يقررون كون الوجود إنما هو خيالٌ

إذا فحص فحصاً دقيقاً لا يتضح منه غير عمل الذرات

الفلاسفة يقررون ، كأنما هم واقفون على كل ما فى الكون ، والحياة وعلى ما وراء المنظور . والجهلاء أكثر وثوقاً بالقول الهراء من القائلين . وتأثير القول ، والإيمان به والجري على منواله ، تؤثر مع الاستمرار فى الرأي العام ، وتنتقل إلى المتشككين العدوى منه ، حتى يندمجوا فى سلك من حاد قبلهم . وها نحن نرى كثيرين من معاهدينا ، يطيب لهم إنكار كل ما يقال له أخلاق ، أو فضيلة أو دين أو عواطف ، ولا يؤمنون إلا بما يدرك بالحس . والإنسان ، على زعمهم ، ما حظه فى الحيــاة إلا أن يكون مرنا فيتكيف وفقا للظروف والأحوال المتباينة ، وإلا أن يكون آلة من نوع الغرض الذى يرمى إليه ، فيكون آلة للعمل أو للإختبار ، أو للتلذذ . ويكون آلة للقتل ، أو للتعذيب . . . .

هذا بعض من أنواع الضلال العام والخطأ الفاشى ، على رغم المجهودات التى بذلت فى سبيل تحصيل العلم ونشره ، وعلى رغم فوز الإنسان باكتشاف كثير من حقائق الحياة ، ونشر الأفكار الراقية والمبادئ السامية . ومناشئ هــذا الخلل إنكار أهل هذا الزمن كون ما بين السماء والأرض لا يحصيه علم الإنسان ولا هو فى متناول العقول البشرية

إن أعمال الإنسان رَقتْ كثيراً وربت ، ولكنّ الآدميّ ذاته أنحى عليهِ التأخر والانحطاط ، وحقُرت قيمته فى نظر نفسه ، وتضاءلت آماله وأمانيه . ولمّا كان الإنسان هو دعامة الإنسانية والمدنية ، إذا هو اعتل شمل الخللُ آساس تلك الدّعامة واندكّ معه كلُّ ما ارتكز عليه . والأحوال الحادثة والواقع المحسوس ، كلها تشير إلى أنّ مكان الخلل الإنسانُ ذاتهُ ، ولهذا صار من المنتظر تداعى المدنية الحاضرة ، وتهدُّم صروحها على رأس أساسها : الإنسان . وليس هذا كلّ ما يدركه الفهم ، عند البحث فى شئون هذا الميراث ، الذى نورثهُ أبناءنا الناشئين . فهنالك كثيرٌ حقيق بلفت النظر إليهِ ، لإمكان إصلاح الحال بهِ ، إذا استوعبه الخلفُ ، ووعاه الناس ، ورغب الجميع فى منع أسباب الفساد وفى الأخذ بالبواعث على إصلاح حال الأنسانية

البحث الثالث

الروح العصرية

كلّ ما يتبع مذهب الماديين من المدنيـة الحاضرة ، ومبادئ هذا المذهب ذاتهـا ، تلوح على خلاف تامّ مع روح الأفـكار الحديثة ، وهذه ما هي إلاَّ موجز ما ورثهُ العالم عن الأجيال السالفة

فالروح الحديثة ، على ما عرَّفها بهِ (تيرانس) ، هي مجموعة ما انتخب من الآراء ونتائج المجهودات ، التى وصل إليها العالم بعد العناء الكثير والتألّم الطويل . فإذا عني بها الفكر ، كان المراد الدلالةَ على الاطلاع الواسع ، والتأملِ الدقيق ، وفحص الشيء قبل إهماله ، ثمّ البحثِ لذاتها ، لا لغرض آخر

وإذا عني بها القلب كانت إشارة إلى تنبّه الشعور ، واحترام الغير ، وعلى الإشفاق على الضعيف والمتألم ، وعلى حبّ العمل باعتباره سبيل الحرية وتربية النفس

وإذا عني بها السياسة ، دلَّت على روح الديموقراطية الصحيحة ، وعلى إصلاح نظام الجماعات بواسطة الحقّ والقانون والعدل والتضامن . فإذا كانت كلّ قوى العالم مجتمعة منحازة إلى جانب واحد ، والعدالة منفردة إلى جانب آخر ، فإنما الروح الحديثة تقضى

بالاستهانة بهذه القوى المتضافرة وبكل الأغراض والغايات ، فى سبيل نصرة العدل وإقرار الحق . وإذا كانت الجماعات متحمسة متحيّزة إلى رأي ، والحقيقة إلى جانب إنسان واحد ولو ضعيف ، فإن تلك الروح تكون مع هذا الفرد فى وجه الباطل وأنصاره

ولكنَّ بين المعتقدات ، السائدة على الناس الفاشية بينهم ، كثيرًا يخالف ما ذكر عن معنى الروح الحديثة ومقتضياتها ، منها وجوب حصر الفكر فى دائرة المحسوسات والمرئيات ، بحيث لا يفكّر إلاّ فيما يحسّهُ ، ولا يصوّر إلاّ ما يرى ويشاهد . ومنهـا تقييد القلب بحيث لا يعرف إلاّ حبّ الذات والأنانية ، فلا يعطف على ضعيف ، ولا يرثى لمنكوب ، ولا يشفق على متألم ، إلاّ لغاية ، وبحيث لا يعرف الحقّ الاّ للقوّة ، ولا من العدل سوى ما يقرّه السيف والنار ، فلا يستنكر إفناء القويّ الضعيف

ومنها منعُ العقل إدراكَ معنى التضامن والتشبّعَ بروحه الطيّبة ، وتصويرُ الضمير خرافةً وتأثيرهُ وهمًا . وكذلك منهـا جهل الحياة وتوهّم الغايةَ منها إمتاعُ النفس بميولها ، والجسدِ بشهوته ، واعتبار العمل وإن كان واسطة لنيل ذلك ضارًّا ، ولذّةِ العيش بدونه أقوى وأفضل . . . .

ومنها ، فى السياسة ، تأليهُ القوّة الغاشمة ، واعتبار النظام النافع

ظلماً ، والشعوب المحكومة فى مصافّ السفهـاء والبهائم ، وإقرار المعاملة بين الناس على أنها تصادم المنافع الشخصية وإرضاء المطامع من حيث يستطيع الطامع نيل ما طمع فيهِ ، بأيّ الوسائل التي تبلغ إليهِ . وتصوير الحرّية ضحيّة على مذابح الأغراض لا شبح لها ولا وجود ، والديموقراطية لغزاً لا معنى له .

ومثل هذه المعتقدات الساقطة تناقض مبادئ الروح الحديثة فتخلق بين الجماعة مواضع كثيرة للخلاف والنزاع ، وللضجر من الحياة . ومهما اوُتى الكاتب من البراعة في الوصف والإجادة فى تصوير الحوادث ، فانه يقصر عن تمثيل ما يتألم منه الناس بسبب هذه المعتقدات ، وما يشوّه وجوه الإجتماع بتأثير نتائجها السيئة فيه ، ويبقى ذلك القلم القادر عاجزاً عن البلوغ الى تصوير حقيقة الحال

والمشاهد الظاهرة والحوادث الواقعة كلها تؤيد ما يعاب على الإنسانية من وجود تلك المعتقدات ، مبادئها فى عقول أبنائها ، ونتائجها الضارّة فى أحوال الإجتماع ، وفتحها فى جمال الحياة . والروح الحديثة وان كانت ترى الظنون السيئة ناشئة من وجود الدواعى إليها ، فى الحوادث والاحوال الحاضرة ، فهى لا ترى الحياة شنيعةً تالفةً الى هذا الحدّ ، ولا هى تهمل ما يحدث من

ضروب الظلم والقسوة، فهي تناهضها جميعاً، بالاعتراض عليها وبالتشنيع على محدثيها، وبتنفير الناس منها وترغيبهم عنها

وما هذه الروح بالقوّة التي يستهان بها، ولا صرخاتها كأنّات المحتضر ضعيفة سريعة التلاشي والزوال، لأنها قوية وإن لم تكن محسوسةً، وموجودةٌ تصمّ الآذان وإن لم تكن صادرة من فمٍ معروف أو من طائفة معيَّنة، وهي تدلّ على وجودها بأنواع من المظاهرات والمظاهر، وبالتأثير في النفوس والعقول وفي أحوال الحياة العامة

إن قسوة ووحشية الحيوان المفترس تظهرها مخالبه أو أنيابه أو أظافره، أما الإنسان فإنهُ يدلّ عليها بالمدفع، وبالسّيف، وبالديناميت، وبالمال عند استعماله واسطةً للأذى والظلم. وليس اختلاف الأداة، مع وجود الضرر، ينفي الوحشية عن الإنسان فهي لاحقة بهِ

قالوا «إن الحقّ للقوة» ولكنّ الحقّ لذاتهِ ليس ضعيفاً إلى حدّ العبث بهِ بمجرّد الرغبة في هذا، وهو وإن خلا من مظاهر القوّة الغاشمة، كالتعسّف والظلم، إلاّ أنهُ عند الحاجة تنفجر ينابيع قوّته فتنشط الأفكار، وتَملأ القلوبَ شغفاً بهِ وحماسة، والنفوسَ ثورة على خصومه، فلا تكون القوّة إلى جانبهم، ولا هو يبقى عليهم

***

من المسائل الاجتماعية الهامّة، التى تشغل الإنسان فى هذا العصر، واحدةٌ تتصادم فيها مبادئ الروح العصرية الحديثة بغيرها، على صورة واضحة تمام الوضوح. هذه المسألة المريعة فى نظر البعض هي: الاشتراكية

والاشتراكية، بالمعنى الذى يفهم من اللفظ، هي تثبيت دعائم الحياة الصحيحة الراقية ومبادئ التضامن العام، واحترامُ الحرية الشخصية، وربطُ الفرد بالجماعة ارتباطاً يكون بهِ لهم، ويكونون له

ومن مبادئها الاهتمام بشئون الناس عامة، وعلى الخصوص بالضعيف، والطفل، والمرأة، ثم بالمحتاج والمنكوب، والمتألم، والمظلوم

ومنها اعتبار ما يُؤدّى من الخِدمات فى هذا السبيل كأنهُ للإنسانية عامة، ولله الخالق. ومنها إدراك حقيقة العلاقات التى تربط الفرد إلى الجماعة، وهذه إلى الهيئة الاجتماعية كافتها، والجميع إلى أدوار التكوّن الإجتماعيّ، وكذلك العناية بكل ما يفضى إلى تحسين أحوال الحياة، وإلى إزالة الخصومات من بين المختلفين، والأحقاد من قلوب الناس

ولكن ما قيمة هذه المبادئ كلِّها فى نظر بعض المخالفين؛

إن من المذاهب الأخرى ما يقرر كونَ الإنسان مسئولاً عن نفسه خاصّة، فإذا هو عني بنيل كلّ حاجاتهِ ووصل إلى الهناء، يكون الهناء شاملاً كلّ العالم. وإذا لم يستطع الفرد البلوغ إلى هذه الغاية وأعوزه بعض حاجات الحياة، كانت الحال على عكس الأولى تماماً، وشقي العالم بشقاء الأفراد

الهيئة الاجتماعية تشمل عدداً وافراً من أصحاب هذين المذهبين، بل إن هذه المبادئ المتناقضة يتفق اجتماعها فى الفرد الواحد. فكثيرًا ما يقرّ عقلُ الإنسان مبادئ المحقّقين، بينما تكون أخلاقه وميول نفسه تتلاءم تماماً مع مبادئ خصوم هذا المذهب

وها بين الناس كثيرون تدلّ أحوالهم على مناقضة بعضها البعض، وعلى مناهضة إحداها الأخرى. وليس أدنى إليه فى الشبه غير الصورة الخيالية التى لها رؤس التنين، وأبى الهول، والغول، ولها جسد واحد هو جسم الإنسان. وليس المزج بين المبادئ والأحوال المتخالفة خاصاً بفريق من الناس دون غيرهم، بل هو يكاد يكون عاماً لا يخلو منه فرد واحد

وإن عدمَ الرضاء من الحال الراهنة والاستياء من أحوال الحياة، من الأمراض التى لزمت كل الأفكار والنفوس، حتى لكأنه من لوازم روح هذا العصر، تكاد تلمس فى أقوال ومباحث المعلمين،

ورجال الإدارة ، والمربّين ، ورجال الدين ، وحتى فى أقوال الجهّال وضعاف المدارك

فمن يتوهم اقتصار انسان معروف على مبادئ مذهب معيّن ، ما عليهِ إلاّ مراجعة ما يصرّح بهِ هذا الإنسان فى حديث أو فى خطابة أو فى كتاب ، وإلاّ المقارنةُ بين ما تضمنتهُ عباراته من الأفكار ومبادئِ المذاهب ، ليتحقّقَ من وجود الخلط بين المبادئ المختلفة ، ومن أنّ الفرد الواحد قد يبدأ خطابته ناحِياً على مبادئ مذهبه الإجتماعي ، ولا ينتهى منها قبل أن يقرّ ويدعوَ إلى كثير من مبادئ المذاهب الأخرى ، بدون أن يدري أو يشعر بذلك الانتقال

ليس هذا كلّ ما يربكُ الحياة ويضاعف عقد المسائل الأجتماعية تعقيداً وإشكالا ، فإن ظهورَ روح المعارضة وأحزابها ، أخذت تصوّر للأفكار الحديثة عيوب أحوال الاجتماع ونظامه ، وما فيها من مواضع الضعف والخلل ، تصويراً يخفى كل محاسن الحياة ، ويبرز صورتها فى أشنع وأقبح الصوَر والأشكال

وهذه الحركة وإن كانت ترمى إلى تنفير الناس من الأحوال الضارة ، وإلى حملهم على إبدالها بأفضل منها ، إلا أن كثرة تجزؤ قوى الهيئة الاجتماعية ، ونهضةَ الأجزاء إلى مصادمة بعضها

البعض ، يُضيع القوى جميعها هباء ، ولا يبقى منها ما يكفل إصلاح الأحوال على الوجه المطموع به

وليس أقرب إلى مشابهة حال الأفكار فى هذا الزمن من حال عائلة ، أخذت تنقل آثاثها من منزل إلى الآخر، فبينما يكون بعض المنقولات فى الدار الجديدة ، يكون غيره لا يزال فى الطريق محمولاً على العربات عرضةً للتلف ، ويكون الباقى فى مكانه الأوّل فى الدار القديمة مبعثراً بدون نظام . فهذه الحال الفكرية الفوضى تهيئ الأزمات الاجتماعية ، والانقلابات ، والتحوّل إلى أحوال جديدة ، ليست داعية إلى الإصلاح الحقيقى ، ولا هي من أسبابه

ولو كانت هذه الحال المرتبكة فى عصر روحهُ الاعتدال وحبّ البساطة ، لكانت المؤثرات الأخرى، من دواعى هذه الروح ، تلطّف تأثير هذه الأحوال السيئة فى الاجتماع ، وألمها فى النفوس . أمّا والاعتدال لا يعرفه الناس ، وروحه لم تألفها بعدُ نفوسهم ، فإن كل ما فى هذا العصر، من الأحوال المرتبكة فى الأفكار والمعتقدات ، يضاعف تأثير الفساد والألم فى النفس

لقد فوجئ أبناء هذا الزمن ، وهم على غير استعداد ، بانقلابات كثيرة ، وبتغييرات هامة فى شئون وأحوال الحياة ، انقلابات عنيفة أطاشت الأحلام ، وأضاعت أمام الأبصار نقطَ الاتّجاه

الدائة إلى النهاية من الحياة . والأسباب التى استعملها الإنسان لإحداث هذا التحوّل، نتائجها هي التى تهدّد الهيئة الاجتماعية الآن ، وتزيد ارتباك مسائلها الحيوية

من الواضح أنه على قدر كثرة وتعقد أجزاء الجسم الواحد ، يكون دنوه من الخلل والانصداع . فالعربة مثلاً تكسر أحدى عجلاتها ، بدون أن يكون فى الحادث خطر عظيم يداهمها ، ولكن طروء هذا الحادث على عجلة قاطرة بخارية تكون نتائجه سيئةً ومرعبة

ولا مراء فى كون التمدن أصبح كالآلة العظيمة ، الكثيرة الأجزاء والحركات التى يتعذر على العقل إدراكُها وحصرها ، والمدنية فى حالها هذه على منتهى ما تصل إليه الحركة السريعة ، والإنسان يشاهد حركتها العنيفة بجزع وخوف ، وهو يترقب من لحظة إلى الأخرى طروء الحادث ، واختلال الحركة ، وانفجارَ مرجل الآلة فتهدّم صروح المدنية ، والإيداء بنفسها وبه . فأنّى له أن تطمئن نفسه ، وهو على هذه الحال من الترقب والخوف ؟

***

الماضى القريب ترك لأهل هذا العصر هيئة اجتماعية عظيمة ، فخمة ، إلاّ أنها تنقصها وحدة الأفكار، والمبادئ ، والأخلاق الفاضلة . فعلى الرغم مماّ وصل إليه الإنسان من القوة المادية والعلمية ،

ومن مضاعفة موارد الثروة وأسباب الهناء ، على الرغم من كل هذا ضعفت قوته النفسيّة والأخلاقية ، وهزل حبّه الأخوة ، وقلّ تعلقه بالإيمان ، وتلاشى من نفسه تأثيره فيها . فما عاد ينقص تلك الهيئة الإجتماعية إلا الإنسان بالمعنى الصحيح

فإصلاح هذه الهيئة ، وسدّ ثلمة النقص التى فيها ، يستدعيان إصلاح حال الإنسان ذاته ، على نهج يكفل معرفته حقيقة مركزه فى الاجتماع ، وإدارته شئون نفسه بحكمة ، ويضمن إمكان سيادته العوالم الأخرى ، والانتفاع بما فى الحياة من نعم الله العميمة ، وهذا لا يتأتى إلاّ بالرجوع إلى المعيشة البسيطة ، وبالاعتماد على العلوم المفيدة المنتجة ، وبتطبيق شئون الحياة على مبادئها وبالخصوص على ما أهمل من مقرراتها الصحيحة وإلا بالعودة إلى الإعتدال والتضامن والعمل ، وإلى البساطة بمعناها الصحيح

هذا ما يجب أن يتحدّاه الإنسان ليصلح به حال الإنسانية ، فى العصور الجائية ، ولكن هل هو من الهنات الممكنات ؟ وهل الناشئ الذى تُفرض عليه هذه الواجبات ، يدرك صوابية تأديتها ، وضرورة سلوك السبيل المؤدية إليها ؟

يقولون : « الولد سرّ أبيه » فإذا كان هذا صحيحاً ، وإذا كان الميراث الذى نورثه الناشئ ، وأحوال الحياة الحاضرة ، كلها تؤثر فى

فكره وعقله تأثيرًا يماثل ما نشعر بهِ من الفساد، وسوء الحال ، وعدم الرضاء بها — فلا بدّ من بقاء الاجتماع منحدراً فى سبيله إلى الفساد، وإلى الفوضى ، ولا بدّ من رضّة على حضيضه المهلك

أما وأحوال العالم متباينة ، والحركات لا تماثل، ولا تطرد إلى غرض واحد، فى سبيل مفردة ، والعقول لا تماثل فى الغباوة والذكاء ، والنفوس فى الخبث والطيبة ، فإن الأمل لا زال عظيماً فى إدراك الناشئين خطر الدركات السافلة التى سقط إليها العالم، وفى كون عموم الفساد يلفتهم إلى ملافاة البواعث عليه، وإلى المبادرة بعمل ما تقتضيهِ الحال السيئة من الإصلاح والتدعيم، فيحسن حال الاجتماع ، وشكل الحياة ، ويكون نصيب أولئك الناشئين منهما الغبطةَ والهناء

الباب الثانى

البحث الاول

الشباب

الناشئة فى كل جماعة من الناس ، هي البيئة التي تظهر فيها الصفات الحسنة والقبيحة ، على صورة واضحة . والشباب هو زمن إفراط النفس فيما تجنح إليـه من الشرّ ، أو ترغب فيه من الخير ، بما هو معهود فى الشباب من النشاط الطبيعي ، وعدم التأنى والتسرع فى نيل رغبات النفس

يقولون إن الطالب يقتدى بمعلمه ، فينهج نهجه ، وينشأ على مثاله ، ولكنّ المشاهد أنّ هذا الأخير يعانى كثيراً من التعب لمنع الطالب من الجماح والاشتطاط ، وكثيراً ما يفشل ، وقليلاً ما يفوز بغايته . وليست هذه الحال خاصة بطلاب العلم ، بل بكل أنواع الناشئة ، لأن الحياة ما هي إلاّ مدرسة جامعة ، يختلف إلى تلقى دروسها ، على الرغم منه ، كل ناشئ بلغ سن الإدراك

فلا تعليم المدرسة يفضل ما يتعلمه الإنسان بدونها ، ولا دروس المعلمين خير من التي ترغمه الحياة على تحصيلها ، ما دامت من

مقتضياتها ، وما دامت تؤدي إلى الغاية منها ، بل إنّ للاقتداء والتمرين العملي تأثيراً فى نفس الناشئ وفى أحواله العامة ، لا يصل إلى مثله تأثير العلم والتربية المدرسية

ها كل مشاهد الواقع المحسّ تدل على أنّ ما يقضي المتعلّم حيناً من الزمن فى فحصه وإقراره ، من الآراء والمذاهب ، للاقتناع به ، يكون تأثيره فى الطبقات الأخرى من العامة وغير المتعلمين قوياً سريعاً . فقليل من الوقت يكفى لتعويدهم حالاً جديدة ، وصرف رغبتهم إلى التعلق بمبدأ شاذّ

من الثابت أن الفكرة كلما كانت خبيثة فاسدة ، كان تأثيرها فى الفئات الساذجة قوياً ونتائجها محققة ومحسة ، كحال الكثول وتأثيره فى جماعات المتوحشين . ومن يسمع ما تنطق به أهل الطبقات المنحطة من الأغاني العامية ، أو يرى ما ينتشر بينهم من الصوَر والمطبوعات ، ما تردد طرفة عين فى الجزم باستعداد هذه الجماعات لقبولُ كل الأحوال الحادثة على اختلاف منافعها أو مضارها ، وبتأثير أيّ المؤثرات فى نفوسهم تأثيراً تاماً ، يتجاوز الحدّ المقصود

ليس من الهيّن استقصاء أحوال الناشئة ودرسها ، ولكن هذا التمحيص نافع على كل حال ، يفيد الباحث دروساً جديدة أكثر

فائدة مما يبغي اعطاءه إياهم . فالمسألة هامة ، ولكن مِنَ الناس مَنْ لا يعنى بها ولا يَقْدِرُها قدرها من الخطورة ، ولا يتمثل الناشئ إلاّ مثالاً للنزق والرعونة ، وصورةً للجهل والمشاغبة ؛ ولا يقدر الصبا إلاّ زمن الجنون والحمق ، وباعثاً على الاشتطاط مع ميول النفس ، وعلى الانصراف إلى ما يغرى به الطيش والهوى الفاسد

ولا مراء فى أن ما تتهم به الناشئة ، تؤيده إلى حدّ ما ، أعمال كثير من الشبان وتصرفاتهم ، كعدم مراعاة مقتضيات الوقار والأدب ، والانصراف إلى الخلاعة والملذات ، وعدم احترام شيخوخة الآباء وتمنى الموت للمورثين ، والاغترار بالنفس والعجب بها واحتقار كل ما لا يتفق مع رأيها الخاص أو رغبتها الشاذة ، وككثير من أمثال هذه الأعمال الجنونية التي تحقّر صاحبها وتسوّئ سمعة الشباب

وهذه الأحوال المرذولة ما هي إلا صورة واحدة ، من كثير من صوَر تلك الفئة الساقطة ، من فريق الناشئة . وهى إن كانت تفضى إلى استياء العقلاء وعدم الرضا بها ، وإلى احتقار من تنسب إليه واليأس من إصلاح حاله ، فإنّ الحكم يكون قاسياً ، على الرغم مماَّ يدعو إليه ، واليأس بعيد عن الصواب ، ما دام الفساد يتطرق إلى الحدث بسبب إهمال الناس إياه وعدم عنايتهم

به ، قبل انحداره على مزالق الحياة المختلة المرتبكة . فالشاب ، قبل دخوله باحة الحياة العملية ، من قلة الإختبار والتجاريب أعذار ، تشفع فيه عند كبوته ، وتحمل محبي الإصلاح على تدبر ما يمنع الفساد من التطرق إليه ، ومن تأثيره في أحواله وأخلاقه عامة ، بمنع أسبابه وما يدعو إليها ، وبمعالجة تكوين أخلاق الشاب وإصلاحها ، قبل اختلال توازن قواه النفسية ، لا بعد فساد النفس والتصرفات وشمول المرض كلّ الذات

ما نظرت مرّة إلى رأس الطفل ، وهو لم يعد طور النموّ ، إلاّ وانصرف فكرى إلى تخيّل ما فى هذه الرأس من الآمال الحلوة ، المغرية بالنشاط إلى تحقيقها والتعلق بالحياة . فلو أُتيح للإنسان نيل كل ما تصبو إليهِ نفسه من الكمالات وأسباب الغبطة ، لكانت حال الإنسانية غير هذه ، ومرتبتها فوق أسمى ما تتطلّع إليهِ النفوس من المنازل السامية ، وتجدُّ فى الارتقاء إليهِ الإرادة وكل القوى العاملة

والذى يكون أكثر تأثيرًا من رؤية الطفل ، فى نفس الباحث وفكره ، مشهد الشاب فى السن التى يحاول جسمه فيها اطراح مظاهر الطفولة وبلوغ شأو الرجولة . فالإنسان فى هذه المرحلة من العمر أفضل منهُ فى كل مراحل حياتهِ . أليس أوّل ما يقتضيهِ عقل

الرجل الناضج الاحتفاظ على قوّتهِ وهمتهِ، على صورة تماثل حاليهما في زمن الصبا والفتوّة؟ أليس تذكار الصبا والحنين إليـهِ يجددان القوّة، إذا هي ضعفت، ويضاعفان الهمة إذا هي خارت عزيمتها؟ فلو أن ما يبقى في قلب الرجل من الهمة والنشاط والإقدام، يضارع ما كان فيهِ منها في زمن الصبا والشباب، لاحتوت ذاته كنوزاً لا تفنى من الأمل والقوّة، ولذلّل بها كلّ ما يعترضهُ في طريقهِ من مصاعب الحياة

من الخطأ ظن الشبيبة حالاً لا يشعر معها الناشئ بمتاعب الحياة وآلامهـا، لأن إنكار ما يحسهُ الشاب من المنغصات دليل على نسيان المنكرِ ما عرفهُ في شبابه من المنغصات، أو على كونه ممن لم يميزوا في تلك السنّ بين البواعث على الأشياء والدواعي للاغتباط والرضاء

الشاب عند دخوله باحة الحياة، وعنـد استطاعته التمييز بين أحوالها وحوادثها، يكون أكثر الناس شعوراً بما فيها من المتناقضات والمنغصات، وبالخير والشرّ، يتصدّع خاطره كلما احتك بالأحوال المتغايرة، ويتألم قلبه من تأثيرها المعتاد فيهِ، لأن الشقاء، كغيره من المؤثرات، أكثر تأثيرًا في نفس من لم يألفهُ منـهُ فيمن اعتاده، وفيمن طال تألمهُ بسببهِ، وكثرت شكايته منهُ. ولكن رعونة

الشباب ، وقوّة الأمل ، يلطفان نوعاً وقر الحوادث ، ويحولان بين النفس واليأس ، ويفتحان أمام المتألم أبواباً جديدة للأمل والطمع في الحياة وبالهناء

الشباب هو رابطة الاتصال بين أعمار النوع الإنسانيّ ، الفانية والجائية ، ولولاه لنقص العالم القوّة المتجددة ، العاملة حقيقة لتجديد حركة الحياة المستمرّة ولتحوّلاتها المطردة ، ولولاه لانقرض النوع كله ، عند تجاوز الرجال حدود الشيخوخة ومجيء زمن الانحلال والفناء

النبات ، إبّان نموّه وترعرعه ، يحتاج إلى العناية بهِ وإلى الهواء الطلق والحرارة ، ويتألم ويضعفهُ الحبس عنها ، كذلك الشاب يحتاج إلى كل هذه الأحوال ، وإلى الحرية . فلو سجن في دير أو فيما يماثله من الأماكن ، ذات النظامات المقيدة الحرية ، ما احتمل البقاء فيها احتمال الرجل ذلك ، ولحنّ إلى الانطلاق والحرّية حنين الطير المحبوس إلى التحليق في الفضاء ، وإلى التنقل فوق الأغصان ، ولاحتال بكل الوسائل لنيل هذه الأمنية إلى أن يبلغ إليها ، أو تسحقهُ ما دونها من الحوائل سحقاً يمنعهُ الحركة والتفكير

وهذا هو شأن ذلك المخلوق النشيط في كل ما يعترضهُ من الأحوال الحائلة بينهُ وبين غايته من الحياة ، وفي كل ما يراه تعسفاً

يؤذيه أو ظلماً حاق به، فلا يكفّ عن الاستياء منها ، وعن محاولة منعها حتى يفوز بإزالتها . فكلما اشتطت الهيئة الاجتماعية ، فى سبيل لا يؤدى إلى راحة وهناء النوع بأكمله، وكلما أوجدت المشاكل والمنغصات فى أمور الحياة كلما كان تأثير هذه فى نفوس الناشئة قوياً وواضحاً ، ونتائجها محصورة فى هذا الفريق المتهور الجرىء . وكلما كان هذا التأثير قوياً ، والحمل ثقيلاً ، كلما تضاعفت قوة الشباب وعملت لطرح ما ترزح تحته ، وتتألم من حمله

إن زمن الصبا لا ينقطع من العالم ، والناشئة الجديدة تشغل حيزاً فى الوجود دائماً ، وإليهم يؤول ميراث النوع الإنساني وكل العصور التي سبقت وجودهم ، وهم الذين يضاعفون قيمة هذا الميراث ليورثوه ابناءهم أثمن وأعظم مما وصل إلى أيديهم ، فحقيق بالعقل أن لا يغفل كل هذه الأحوال الثابتة عندما يبحث فى أحوال الناشئة ، وينقب عما فيهم من مواضع الضعف والفساد ، فإن هذه الذكرى تصرف إرادته إلى تلمس الإصلاح ، بدلاً من الاكتفاء بالتألم وبالاستياء

وكل من يرغب حقيقة فى الإصلاح لا يعدم وسيلة ، تبلغ به إلى ما يقصد إليه ، ولا ييأس من الحصول على دواء ناجع ، يبدل الحال إلى أفضل منها ، فيضيف إلى القوى العاملة فى اصلاح الهيئة

الاجتماعيـة شبانًا ، لهم قوة الشباب ، ونضج الرجولة ، ورزانة الشيخوخة ، وتبصر الحكماء ، فينتفعون بالحياة ومما فيها ، وينفعون الحياة وكل ما فيها

البحث الثاني

الحركة الفكرية

الحياة فى كل الأزمان مسألة عويصة تقصّر العقول عن الاهتداء إلى حلّها الصواب ، على الرغم من ظن الناس غيرَ ذلك . فمنذ خلق النوع الانساني إلى هذا اليوم لا زال الخلف يتبع السلف فى البحث عن حقيقة الحياة ، ولا زال حظ الجميع متماثلاً فى العجز وفى الغرور. وكلما نظر المرء إليها ، من أي الجهات ، لم يجد لها حداً مدركاً ، فيقف النظر دون أفقها ، ويبقى سرُّها مكتوماً فى صدر الوجود الأبدى ، لا هذا يبيحه ، ولا التصورات تدركه ، ولا الأفهام تلحظه

هذه الحال هى التي يراها الناشئ ، عند وقوفه على أبواب الحياة ، يبغي إدراك ماهيتها ، ونشدة الطريق إلى غايتها . ولو أن الناس يتركونه يتخبط ما شاء فى ظلمات مجاهلها ، يجدّ إلى الهداية ، ما شكى تداخلهم فى شئونه ، ولا تفسيرهم الظروف والحوادث على ما

ارتأوا ، ولا تأثيرهم بهذا التطفل ، فى فكره وحياته ، تأثيراً كثيراً ما يحوّل عن الجادة المثلى

إنّ من الصعب إدراك الإنسان حقيقة الحياة ، وهي على حالها من الغموض ، وهو تحت تأثير الأغراض والغايات المختلفة . فما رغبة الكاتب فى تصوير حالٍ ما ، إلاّ رغبته فى شرح هذه الحال على ما تلوح له ، وعلى ما هو ثابت لها فى النظر عند المشاهدة ، أو فى الفكر بالاستقراء والتصوّر

عند وصول الشاب إلى الجزء النهائي من الدراسة ، يكون أمامه أمران خطيران : الأوّل: وضع خطة لحياته، أي انتخاب نوع العمل الذى تنصرف إليه الرغبة . والثانى: تصوير الحياة، على قدر ما وصلت إليها مداركه وبلغ إليها فهمه . وهذا الأمر على العكس من الأوّل يكون وفقاً للظروف والصدف أكثر منه لنهج مرسوم أو لخطة معروفة النتيجة

فتعيين نوع العمل معناه الدراسة النهائية . والذى يمتاز بهِ الشاب فى هذا الردح من العمر، هو الرغبة القوية فى العلم ، والاجتهاد ، والنشاط ، فكثيراً ما يحدوه حب الدرس إلى الاحتجاب ، وقضاء كل الأوقات بين الكتب والدفاتر . ولمّا كان القصد إلى غاية معينة لا يكفى لتحقيقه الرغبة فيه ، ولا بدّ من ممارسة وعمل كل الوسائل المؤدية

إلى الرغبة ، فلهذا تكون الضرورة هي القاضية بوجود ما ذكرَ من الصفات فى الطالب المجتهد

كان العمل فى الأزمان السالفة شاقاً ، لقلّة أدواته المعاونة الإنسانَ فيه وعلى أدائه . وكانت مواد العلوم قليلة ، لضآلة ما وصل العالم إلى اكتشافه فى تلك العصور ، فكان التعليم سهلاً . أما الآن وقد امتلأت بطون الأوراق ، بما استوضحه السالفون من نظريات العلوم ، وبما اجتلاوه من الحقائق الغامضة ، فإن مهمة التعليم والتعلم أصبحت شاقة . فلا بدّ للإنسان ، قبل البحث والتفكير ، من فهم وتعلّم كل ما اجتمع من أبحاث من سبقوه والوقوف على ما أنتجوه من المقررات . وما تحصيل هذه المعلومات بالأمر الهين ، فإنهُ يقتضى الزمن الطويل ، والصبر الجميل ، والاجتهاد والنشاط ، حتى لقد يفنى العمر قبل الانتهاء من التعلّم ، وقبل البدء بالبحث والاستقصاء . وهذا ما يحمل الناشئ على الاستياء والتقزّز من حال لا تدرك نهايتها ، ولا يبلغ القاصد إليها غايتها

وأوّل النتائج من هذا العناء : الإعياء من تضاعف أنواع العلوم وغزارة مادة كل منها ، ومن تأثير التحصيل فى قوى الإنسان الذاتية تأثيراً يفضى إلى جمود النفس

والثانية : انفراط عقد العلوم بعضها عن بعض ، وعكف الطالب

على تحصيل نوع واحد منها والاختصاص به

وحصر قوة الإنسان فى علم واحد ، وحبس فكره فى مواده الكثيرة ، يمنعانهُ الاطلاع الكثير، والوقوف على ما فى غير هذا العلم مما ينفعه ويفيد بهِ . وإنه لمن المحزن للنفس أن تتحمل كل العناء ، لتبقى البصيرة والباصرة عند هذا الأفق القريب . ولكن ما حيلة الناشئ ، والعلوم كثيرة المواد لم يؤلّف الناس بين أنواعها ، ولا هم يستطيعون هذا فى حين ما ؟

فلما كان من المتعذّر إلمام الإنسان بكل العلوم ، وبكل ما فى العالم مما له تأثير فى أحواله ، ويدٌ فى شئونه العامة ، وفى أسراره الغامضة والمعلومة ، لهذا يكون من المحال أيضاً إدراكه حقيقة الحياة إدراكاً تاماً أو قريباً من الصواب

الإلمام بالحياة هو المطلب الثانى الفرض على الناشئ كما سبق القول به ، ولمّا كان من المتعذر تحقيق هذا الغرض على صورة صحيحة ، يكون ما يخطط من هذه الصوَر التقريبية مماثلاً إمّا لمذهب المحققين ، (ومبدأه عدم التصديق إلاّ بما يتحقق بالاختبار) ، وإمّا مخالفاً إيّاه . ولكنّ من المؤلم للنفس على كل حال تمثُّل الحياة عدماً ، مع أنها مطمح الآمال ، وسبب تعلق الإنسان بطول البقاء ، وبما فيها من أسباب الغبطة الروحية والهناء الجسدي

إن نتائج الأبحاث تزيد وتتضاعف، مع مرور العصور والأزمان، حتى أصبح من المتعذر تحديد غايتها، وحصر مغازيها. فإذا كانت الحياة عدماً، على رأي بعض المذاهب، فلماذا يا ترى بذل العالم تلك المجهودات العظيمة فى استقصاء كل شيء فى الوجود، من إنسان حي، وجسد مقبور، ونبات، وجماد؟ وما هي فائدة الحقائق العلمية التي أنتجتها هذه الأبحاث؟ ولماذا احتمل النوع الإنسانيّ كل ما اعترضهُ فى طريقهِ إلى هذه المباحث من الصعوبات والمشقات، ما دام الخير، والعدل، والحقيقة؛ ما هي، على رأي البعض من الناس، إلاّ ألفاظ لغير موجود تدلّ عليهِ؛ ولماذا هي كل العناية بالوقوف على أسرار الحياة، ما دام إدراكها متعذراً يستوى عنده الجهل بالعلم، والنبْه بالغباوة؟

قال رينان فى سنة ١٨٤٨: «عرفت العلم نافعاً لكشف ما خفي من الغوامض، ولاجتلاء ما احتجب من حقائق الأشياء، ولإدراك وفهم ما فى الطبيعة من الأسرار والقوانين، التى دعت الأديانُ جميعاً إلى الإيمان بها تصديقاً بدون فهم ولا تحقق. وسيجيء حتما حينٌ يصل فيهِ الإنسان إلى معرفة كل ما فى العالم المنظور بل وما وراءه أيضاً»

بفضل هذا القول، وغيره من أقوال فلاسفة العصر الذى سبق

عصرنا هذا، تحوّل الناس عن العقائد والمعتقدات القديمة، وما عاد كثير منهم يؤمنون بغير ما يقرّه العلم ويتحقق بالاختبار

ولا مراء فى أن لهذه الأقوال عند انتشارها تأثيرًا واضحًا فى الأفكار، وعلى الخصوص فى عقل الناشئ، وهو فى عمر قلّ أن ينضج فيهِ وأن يستطيع معارضة تأثير الحوادث العارضة

الناشئ الحديث منصرف إلى العلم، مقرٌّ كل ما يقرُّه، منكرٌ كلّ ما ينكره. فلا يقرّ الأوهام، ولا ما يراه العقل غريباً، ولا يدّعى إمكان الوصول إلى معرفة ما وراء الطبيعة. ولكنهُ بحكم الضرورة يتعلق بأهداب الفلسفة، لتعليل ما لا يدرك، ولتقريب الأفهام من آفاق الأحوال المجهولة التى لا تدرك ولا تحسّ، والتى يقصرعن فهمها العقل البشري. وبسبب وضوح كثير من المميزات بين هذه الأحوال، كان من المتعذر تنسيقها على أوضاع تدنى العقل من الحقائق، فنشأ منها ارتباكات جمة، واختلافات عظيمة، بين الباحثين والمقررين

فبين المقرّرات العلمية تباينٌ، وبين الحوادث المتماثلة اختلافٌ فى النتائج، رجرجت نظر العقل فى المنظورات أو المفهومات، فاضطربت فى عينيهِ، فارتاب فى العلم، باعتبار كونه إدراك العقل الأشياء واستنتاج القوانين العامة منها. وهذا هو السرّ فى عدم

الرضا، وفى ارتياب الناشئ فى الحياة

يعمل الإنسان للبحث، ولمعرفة منشأ ذاتهِ وفكره، ولإدراك الرابطة بين العقل والحقائق. ولكن كم من الباحثين والمجتهدين فى التعلّم، ألهاهم هذا الشأن وحده عن بقية شئون الحياة الهامة، فأغفلوها؟

يقولون: «لكل مجتهد نصيب» فإذا لم ينل الباحث عن سرّ الحياة نصيبَهُ فيها، فربما يجيء يوم يرتبط فيهِ ما وصل إليهِ من الحقائق المتفرقة، بعضه إلى بعض، فتظهر النتائج، التى نراها بعيدة عن كل حدّ، مرتبطة هي الأخرى ببعضها، فتساعد أبناء العصور القادمة على إدراك سرّ الحياة ومعناها. فيكون لأولئك الباحثين إذ ذاك نصيب من الشكر على ما أحسنوا لخصةُ أجزاء وعجزوا عن تأليفه وربط نتائجه إلى بعضها

***

كل ما ذكر يشير إلى حال الأفكار من الفوضى والاختلال، وإلى عدم انصرافها إلى غاية معينة. وكل الأعراض والظواهر تدل على ما استولى على الناس من عدم الرضا بهذه الحال، والتساؤل بجزع عن مصير الأمور

يقولون للناشئ، عند طلبه طريق الحياة المؤدية إلى غايتها:

« مالها غير طريق العلم » ، وهو إذا قصد إليهِ، وقطع شوطاً فى طريقهِ، تنفرج أمامه السبل وتختلف الوجهات، فيتشاكل عليهِ الأمر، فيضل سبيلَ الغاية، ويرتاب فى الطريق التى يسلكها، وفى الغاية التى يتجع إليها. هذه هي علّة الفوضى الشاملة الأفكار، وسبب الاستياء من الحياة، ومنشأ المذهب السفسطائى : الارتياب فى كل شيء

من المؤكد كون الناشئ الذى تحدوه مقتضيات الحياة إلى التفكير فى شئونها، وإلى البحث والفحص للوصول إلى الحقيقة، يتألم من زمن بعيد، ولا زال أمامهُ من المزعجات ما يحمله على الاستياء المستمر وعلى التقزز من الحياة، بدون أن يكون له أمل فى تحسن الحال أو فى شفاء النفس. وهذا يؤثر فى فكره تأثيرًا سيئًا يجعله يرى الوجود عدماً، ومعانى الحياة خرافات وأوهام

إن النظر حيثما يتحوّل لا يرى إلاّ نموذجاً تاماً لهذه الصورة، وإلاّ خللاً فى دعامات أحوال الاجتماع، وإلاّ فساداً فى المبادئ العامة. فما حال الناشئين عند انضمامهم إلى صفوف الجماعة، إلاّ مثال المتطوعين فى الحرب، يجيئون إلى الجيوش المحاربة والخطوب متوالية عليها، والأحوال مرتبكة، واليأس من الفوز عظيم شامل. وحال الحياة تقتضي، فى هذه الظروف، القليلَ من القوة والكثير من

ـمل ، فإنما بهذين معاً يدوم عمل القوة ، ويتقدم العالم خطوات واسعة فى طريقه إلى اكتشاف المجهول ، وإلى الرضا بالحال مع انتظار تحسنها ، بدون أن تقعده عن غايتهِ العقبات ، وبدون أن يتطرق إلى نفسه اليأس ، لما يراه من بعد الغاية ومن حزونة الطريق إليها

وليس من الصعب إدراك حال الدين فى الهيئة الاجتماعية ، وهي على ما ذكر من الفوضى الفكرية . ففريق ينكره ، لعدم اعتياده تعاليمه وما تضمنت من المبادئ منذ نشأته طفلا . وفريق لا يكاد يخرج من طوق الطفولة ، حاصلا على شيء من مبادئ العلوم ، حتى يتوهم هذه تناقض العقائد عامة ، فيهملها جميعاً . فإذا بقي من هذا الفريق من يتمسك بشيء من تعاليم الدين وشرائعه ، فإنما جريا مع العادة وبتأثير إلفة الشيء فى النفس وصعوبة التحوّل عنه . ولكن لسانهُ ينكر ما يعمل، ويعمل ما لا يقرّه عقله ، فما أحوال حياة هذا الإنسان إلا مزيج من المتناقضات تضحك فريقاً ، وتحمل آخر على الأسف والحزن . وهذه الأحوال المرتبكة تغرى بعض العقلاء المتعلمين بالتأمل ، وتدفع نفوسهم إلى الثورة وإلى التألم من ضياع الحقيقة بسبب الضلال والغرور، ومن عدم إمكان الاهتداء إليها، بسبب كثرة الأباطيل

لا مرية فى كون العالم ينحدر مبعداً عن الدين ، ويجرى وراء عشاق الأفكار الحرّة ، بدون أن يعنى بالعقلاء وحركتهم النفسية ، ولا بضرورة التأمل والإمعان . وما انتشر من الخرافات وعلق بالعقول ، باسم الأفكار الحرّة وحرية الاعتقاد ، يكاد يُغرِى المتدينين القليلين بالتشكك فى عقائدهم ، لعموم انتشاره ، ولكثرة انتصار الناس له ، ولانصراف هؤلاء إلى مناهضة الأديان والتعاليم السموية

الدين ، ولا ريبة ، دعامة قوية من الدعامات الأساسية التى يتدعم بها الإنسان والاجتماع . فأعظم خطر يهدّد نظام الهيئة الاجتماعية ، ويدكّ صرح المدنية الصحيحة ، ما هو إلاّ اختلال هذه الدعامة وتطرّق الفساد إلى جسمها . ولمّا كان الخالق الحكيم لا يشاء أن تعبث بخلقه يد الفساد ، وأن تكون هذه الحال السيئة نهاية حظوظ النوع الإنسانيّ فى الحياة ، فلهذا كان عموم الفساد ، ووضوح الفارق بين حال الإنسان ، متحلٍّ بالفضائل ومنسرحٍ منها ، من الأسباب التى نهضت بالناس للرجوع إلى جادة العقل والهدى . وما يرى فى الاجتماع الآن ، من النزوع إلى هذه الحركة المباركة ، يبشّر بالخير ويقوّى الأمل بحسن المآل

والحقيقة أنّ هذا الفريق من الناشئين الذين ينخرطون فى سلك طلبة علوم الدين ، سواء أكان هذا لاستعدادهم الفطري لها ولرغبتهم

فيها، أم لغاية، إنما مركزهم فى الهيئة الاجتماعية حقيق بالعناية به، لخطورته، ولتأثيره فى النوع الإنسانيّ كافته، وفى مستقبله، وفى عقيدة أبناء العصور الجائية

ولا افتراء فى أنّ من هذا الفريق من يحاذر الأفكار الحرّة، فلا يجد الوقاية منها ممكنة إلاّ بالتمسك بأهداب الدين وبتعاليمه عامة، وإلاّ بالتعصّب لها، ولو عن جهل، تعصباً قد يفضى إلى ردّ فعل غير منتظر، وغير محمود العاقبة

ومنهُ من ينصرف إلى الدرس والفحص، وإلى مقاومة الاعتراضات بالجدل العقلي والعلمي، فيؤثر هذا العمل فى عقله تأثيرًا يبعده شيئًا فشيئًا عن حقائق الدين، ويتسع أمامه عالم المجهول، فيتطرّق إلى عقله الشكّ، ويملكه الارتياب بالإيمان

ومنهُ أيضًا من يعنى بإدراك حقائق الدين والتثبت منها، وبتطبيقها على مقتضيات العلم، وبإظهارها فى صورة لا تخالف حالها القديمة، وتتفق مع أحوال العصور الجديدة، ومع تيار النهضة الحديثة، وحتى مع المبادئ الصحيحة فى الأفكار الحرّة. ولا مراء فى أن عمل هذه الفئة شاق وعظيم، لا بدّ من أن يكون له شأن فى انتشار الدين وفى تأثيره فى الأحوال الاجتماعية، وفى هداية المارقين وردّهم إلى حظيرة الإيمان والفضيلة. ولكنّ العمل الشاق، لا يقوى على

احتماله غير النفر القليل من ذوى الحكمة والصبر

ومن هنا إلى أن تظهر نتائج أعمالهم فى الهيئة الاجتماعية، وتأثير أفكارهم فى نفوس الناس، كم يحدث فى الحياة مما يدعو إلى الاستياء، وإلى إعلان الشكوى بالندب والصراخ ؟

البحث الثالث

الحركة الأخلاقية

بين الأخلاق والأفكار صلة لا تنفصم عراها، مهما حاول الإنسان إغفالها والانسراح من قيودها، لأنّ الحقيقة لا تمحى بالإغفال، وتلك حقيقة ثابتة

والأخلاق شأنها فى أحوال الحياة عظيم، حتى أن بعض المتطرفين ينكرون الدين رغبةً فى تأييد وتعميم مبادئ خاصة من علم الأخلاق، وطموحاً إلى جعلها معتقداً عاماً تألف الناس تعاليمه، وتتهذب النفوس به، وما هذا إلاَّ ظناً بكونه من الإصلاحات الوجيهة، التي تفضي إلى توحيد المبادئ والأفكار والمعتقدات، بعد أن حالت الأديان دون ذلك، وبعد أن أدّت إلى تفريق الجماعات ووجود المنازعات، بدلاً من التوحيد وعموم السلام

إن مبادئ علم الأخلاق خلاصة نقية، استخلصها الإنسان

من حوادث الحياة ومن تجاربها ، بعد إقرار الضمير إياها وارتياح النفس الطيبة لها ، وبعد أن هذبها العلم فى سيره البطىء إلى الجلاء والوضوح

ولكن من الخطأ توهّم إمكان اتصال الضمير بالحقيقة ، بدون قوّة الإدراك وحسن التمييز . فكما أن الإنسان عاجز عن إدراك الحقيقة إلى حدّ ما ، فإنه كذلك لقاصر عن تمييز الخير من الشر إلى هذا الحد . وإذا كانت مقررات العقل ، وتعاليم الأديان مع كونها صورة الحقائق السامية ، ما هي إلا خرافات لا تشمل ما يدل دلالة منطقية على الحقيقة الصحيحة ، على رأي ذلك الفريق ، فكيف يمكن للضمير وحده البلوغ إلى تلك الحقيقة ؟

إن إمعان النظر فى هذه المباحث يلفت العقل إلى أنه لداعى ارتباط الأخلاق بالأفكار ، ولداعى اختلال الحركة الفكرية اعتور مبادئ الأخلاق ما اعتور تلك من الفساد والفوضى

فكل من تصدروا لقيادة الحركة الفكرية أو الأخلاقية ، من الكتاب ، والروائيين ، والفلاسفة ، أساؤا استعمال مواهبهم ، فأدى ما نشروه من أفكارهم إلى عكس الغاية المنشودة ، وعبثوا بكل شيء فى أحوال الحياة ، حتى بمبادئ علم أحوال النفس وعلم أحوال الهيئة ولرغبتهم فى مذهب المحققين ، وقصدهم إلى حصر كل الأحوال ضمن

مبادئ هذا المذهب ونفي ما عداها ، يكتبون عن القلب والسريرة والضمير ، ويشرحون أسرار النفوس وخاصياتها ، كأنهم هم الذين أوجدوها وأحاطوا علماً بما اشتملت من الأسرار والخواص

والناشئ يطالع ما يكتب وما ينشر ، فيؤثر فى عقله فيضله ، ويحشوه بما لا ينفع ، ويبعده عن الحقائق الصادقة . وليس هذا القول افتراء ، فقد وضح فى عقول الناشئين ما يدل على صدقه دلالة واضحة . وها الحرية والمسئولية ، والخير والشر ، لم يعد لألفاظها فى تلك العقول ما تدل عليه من الروح والمعنى ، وصارت هي وغيرها من كل مبادئ الكمال والفضيلة مشكوكاً فى صحتها ، تأخذها الريبة من كل ناحية

من هذا الغرور الناشئ ، وبسبب هذه المؤثرات المضلّة ، نشأت فى الاجتماع حال أخلاقية فاسدة ، منها خطر على الناشئ خصوصاً ، لأنه فى السن التى تتكوّن فيها الخصال وتنغرس فى النفس ، لتصير من صفاتها الثابتة

ليس من الحكمة التشكك فى المبادئ الأخلاقية الصحيحة ، أو نفيها اعتباطاً . فالعقل يقضي بعرفان هذه المبادئ ودرسها ، ومقارنتها بما يرتاح له العقل والضمير وبما ينفران منه ، لإقرار الأولى ورفض الثانية ، لأن علم الأخلاق يصور الفضيلة فى أحسن ما تبتهج

له للنفس من الأشكال ، ويظهر الرذيلة فى أبشع ما تحول عنه صوفا

ولكن أين هي الحكمة فى رأس الناشئ ، وهو فى أول مراحل الحياة ، وأنى له أن يكون حكيماً ، وما جمعه العالم من الأباطيل يسرع إلى ملأ رأسه ليجول دون امتلائها بالعقل والحكمة ؟ فيا لجناية الناس على الناس !

***

لا مشاحة فى حدوث هذا الانحلال فى الحركتين الفكرية والأخلاقية ، ولا فى كونه أنتج ضعف تمييز الإنسان الحقيقة ثم ضعف النشاط

وتمييز الحقيقة يراد به صدق النظر عند الإبصار ، وصدق الحس عند اللمس أو الشعور ، وصحة الفهم عند الرغبة فيه وعند وجود ما يدعو إليه ، ويراد بتمييز الحقيقة أيضاً تصديق الإنسان حواسه عند إدراكها المرئيات وحكمها عليها

وصدق الحس والإدراك من أقوى الدلائل على صحة العقل والجسم ، وعلى حسن حال القوة الحيوية . فكل ما يصيب الإنسان من الأمراض ، الجسمية أو العقلية ، يؤثر فى قوة الحس والإدراك ، ويضعفها . وليست الأمراض وحدها ، ولا ثورة النفس ، هي التى تحدث الضعف ، وإنما يحدثه ، ويضاعف تأثيره فى الإنسان ، ما

يشتغل به من استمرار فحص الشيء ، وتقوية الريبة به ، وعبث الفكر أو العواطف أو الضمير ، لأن المشاغبات الجدلية تحدث في العقل دواراً وذهولاً ، يبعدانه عن الحقيقة ، أو يضلانه عن الصواب

من الثابت أنه لا يمكن للضمير والعقل ، أن يستعرض أحدهما أدلة نفي أو إثبات صحة أمرٍ ما ، بدون أن يرتاح لإحدى الحالين ، ويرغب عن الأخرى . فهذا التحدّي يتلف العقل لأن كثرة الاطلاع على المتناقضات تعبث بالقوة المميزة ، عبث الفوضى بالنظام وتفضي بالعقل إلى الخلط والهذي . فإن لم يعن الإنسان بذاته ، حتى يكون للحوادث تأثير صادق فيها ، لم يكن حظّه من الحياة الصحيحة إلاّ حظ المرآة مما ينعكس عليها إذا زال من أمامها ، ويفقد حتماً قوّة حس الحقيقة ، فقوّة التمييز الصحيح ثم «صدق الحكم» وهو النتيجة الأولى لمعرفة الحقيقة وتقديرها

إن كثيراً من المعتقدات السفسطائية ، والقياسات الفاسدة ، لا تنظر إلى الوجود وإلى كلّ ما فيهِ إلاّ بعين الاحتقار والازدراء ، لأنها لا تعرف للحياة قيمة ، ولا للوجود اعتباراً صحيحاً . ومن يفقد قوّة تمييز الأشياء وقدرها يفقد بطبيعة الحال معرفةَ معانى الألفاظ ، لأنَّ هذه إنما وُضعت للدّلالة على ما له وجود معروف واعتبارٌ محدّد . فمن كان شأنهُ العبثَ بالألفاظ كما بالموجودات و بالأفكار ، فهو مهذار هذّاء

فإذا كانت هذه هي حال العالم كلّه (لا قدّر الله)، وإذا لم يكن للألفاظ المعروفة ما تدلّ عليـهِ من المعانى، وللموجودات حقائقٌ، فأين هذا العالم من الحقيقة، وما هي هذه الحقيقة؟

إن طائفـةً عظيمة من الخلق، من فئات الشيوخ والشبان، تطرّق إليهم داء عدم الاعتبار، وطمس الحقيقة. وما على الإنسان إلاّ النظر إلى الصحافة، وهى صورة الهيئة الاجتماعية من أحد وجوهـا، ليرى كيف تنقص الكتاب المبادئ. فها هي الأقلام تتقلب مع الظروف، ويجرى لُعابها مع الغايات الشخصية، ويتلوّن مدادها على وفق ما يروق بعض الأنظار. وما الصحافة التى هذا شأنهـا، إلاَّ مثال ردىء ونموذجٌ غير حسن، يغريان بالتقلّب، وبعدم الثبات على المبادئ الفاضلة والصّدق، ويدلاَّن على هـذا بكونه من نتائج ضعف العقل وقلّة الحيلة

وهذه الأحوال السيئة مرتبطة ببعضهـا، كحلقات السلسلة الواحدة، لم يقف تأثيرها السيئ عند حدّ العبث بالقوّة المميزة فى الإنسان، وإنما تعدّاها إلى الإنسان ذاته، فأضعف همته ونشاطه، لأن الشك، والتقلّب، وكثرة تحوّل الفكر وقمزه، كلها إذا أثّرت فى العقل إلى حدّ إصابته بالوسوسة، يفقد العقل كلّ قوّته

ولمّا كان تعيين العمل يقتضى تحديدَ العقل إيّاه، وإقراره،

فمتى امتنع هذا بسبب عجز العقل ، الناشئ من كثرة التحوّل والاضطراب ، استحال بداهة تعيينه العمل ، فاستحالت العملية المنتجة . ألا ترى أنّ نتيجة التقلّب المستمر كالزرع يقلع قبل نضجه، فلا يمكن الإثمار؟

***

إن التأثير فى العقل ، على صورةٍ ما ، ينتقل إلى التأثير فى الإرادة على مثال هذه الصورة . فإذا أُجمع الناس على إثبات عجز إنسانٍ عن العمل ، وعرف هذا الحكم وأثّر فى عقله ، يتناول هذا التأثير الإرادةَ فتَهِنُ قواه ، ولا يعود يحسن العمل . وكم من أطفال أذكياء، صدّع المعلمون خواطرهم بنسبة الغباوة والبلادة إليهم ، فوقف نموّ قوّة التمييز والإدراك فى عقولهم ، وقوفاً أعقبه الانكماش فالجمود ، فالغباوة الصحيحة

إن غمط الفضل ، وتثبيط همّة الفرد يؤديان إلى تطرّق الشك إليه وسوء ظنه بنفسه . وما يتوالى على إرادة الناشئ ، فى العصر الحاضر من هذه المؤثرات فيها ، عظيم العدد مختلف الأنواع ، أفضى إلى إضعاف الشاب ، وإلى إصابته بالخبل

وأحد هذه المؤثرات المتلفة الركون إلى مذهب القدرية . فإن عدم فهم معنى القضاء والقدر ، على صورة صحيحة ، حمل الناس على إهمال

شئونهم فى الحياة ، وعلى ترك الأمور للظروف والتقادير ، وعلى عدم الاهتمام بإصلاح أحوالهم الشخصية ، بمقاومة ميول النفس وشهوتها ، وبمنع روح الشرّ الفاشية فى الهيئة الاجتماعية . فماذا يا ترى يكون تأثير هذا الإهمال فى الحياة ، وفى الاجتماع ؟ وماذا يكون نصيب الخلق فيه من العقل ، والرقيّ ، والمدنية الصحيحة ؟

إن حال التأثر فى سن الشباب تكون أقوى منها فى كل سنّ أخرى . فالشاب متسرّع فى الإنفعال ، والاستحسان ، والعطف ، كثير الانخداع بالخيالات والولع بها ، وسريع التهور والانتصار لما يتراأى له فى صورة الحسن ، خفيف الحركة فى العمل على شكلٍ يُحبّب إلينا الصبا على ما فيه من النزق وقلة التبصر . فمع كل ما ذكر من دواعى الشباب ، ومع وجود الكثيرين فى هذه السنّ ، لم نعد نلمح بين نفوسهم الثائرة وأرواحهم الخفيفة ، ما كان يلوح على وجوه الشبان من دلائل البال الناعم ، والحياة السعيدة . فكل ما جناه العالم ، وما جمعه من أسباب الشجن والهمّ ، يحوّط الناشئ منذ ولوجه باب الحياة ، فيمحو من وجهه معالم الصّبا ودلائل الاغتباط والنشاط ويترك عليه مسحة الهمّ والكآبة ، والاستياء

وكل من يفكّر فيما ينتظر الناشئ فى الحياة ، من الهموم والمتاعب والأباطيل والمغريات المتلفة ، ومن أسباب فساد العقل والخلق

بفضل الحركة الفكرية والأخلاقية الحاضرة ، كل من يعنى بالناشئ ويتمثل هذه الأحوال ينقبض صدره ، ويندب مع النادبين حظّه في الحياة وحظّ العالم معه

فلو أنّ هذه الحركة سارت على غير الدّرب الذى سلكته ، وقصدت إلى الحقيقة ، بدلاً من إنكارها ومن غمط فضل الباحثين عنها ، لما كانت هذه حال العالم ، ولا تلك صورة الحياة فى نظر الناس ، ولا ذاك حال الناشئ عند أوّل عهده بتعرّف الحياة ، ووقوفه على أوّل طريقها يتساءل عن حظه فيها ، وعمّا يخبئه له المستقبل فى ظلمات مجاهلها

إن تصوّر ما وصلت إليه حال الاجتماع ، من الفساد والاختلال يملأ الصدور حفيظةً وحنقاً من هاتيك المبادئ السفسطائية والمعتقدات الفاسدة ، التى احتلّت العقول حيناً من الدهر فشرّبتها سمومها ، وملكت النفوس فأعدمت فيها الأخلاق الفاضلة

علم الله ما العالم بحاجة إلى المتلفين والمفسدين ، بعد عموم الفساد وملأ جراثيمه النفوسَ جميعها ، وإنما يعوزه رجالٌ ، لهم إيمان قويّ ، وعقيدة ثابتة ، وجلَدٌ على العمل ورغبة فيه ، ولهم عقول رصينة ، وقلوب حيّة ، رجال يزنون الألفاظ على قدر تأدية المعنى ، ويعرفون واجباتهم فى الحياة ، ولهم أخلاق فاضلة ونفوس طيّبة ، فهل بين الناس كثيرون لهم هذه الصفات ؟

البحث الرابع

مدرسة الحياة

ليست الحركات الفكرية والأخلاقيــة هي التى تَشْغَل فريق الناشئة ، بل إن فريقاً من المتعلمين ينظر إليهــا عن كثب ، ولا يعنى بها كلَّ العناية الحقيقية بهــا ، وفريقاً آخر تشغله أُمور الحياة وتجاربها ، فيقف بين العلوم النظرية والأحوال الحادثة وقوفَ المرتبك الحائر ، ينظر إلى دروس المدرسة كالدّمية إلى جانب صور الحياة الحقيقية ، فتتضاءل فى نظره كلّ المعارف والمعلومات ، إذا هي قورنت بما يراه فى العالم ، من التجارب المتوالية ، والأحوال المتغيّرة ، فلا يعود يرى النسبة بين الجامعة التى يتعلم فيها وبين مدرسة الحياة إلاَّ كما هى بين الذرّة وكل الوجود

إن الكثيرين من الباحثين والمفكرين ، والفلاسفة ، تبهرهم الحياة بما فيها من الأحوال والحوادث وتزيغ أنظارهم ، فتلوح لهم نظريات الفلسفة وعلوم الأخلاق والمبادئ الدينية شيئاً ، والحياة الصحيحة وأحوالها الحادثة شيئا آخر . لا صلة بينهُ وبين الأول . وتتراءى لهم دروس الحياة أكثر مطابقــة للواقع ، وأقوى تأثيرًا فى النفس والعقل ، وأدنى إلى الحقيقة الصادقة من غيرها إليها ، سواء أفى

الخير أم فى الشر . وما يحدث فى عالم السياسة ، أو المال ، أو الصناعة ، وفى كل الشئون العامة ، وفى العلاقات بين الناس و بعضهم ، و بين الزملاء والأصدقاء ، وجميع ما يراه الإنسان رأي العين حادثاً أمامه ، كله يؤثر تأثيراً صادقاً فى الروح والفكر ، عند نشأة الإنسان وبدء تكوّنه

وكما أن الأرض المخصبة تنبت كل ما يلقى فيها من البذور ، إن حسكاً وإن ورداً ومشمومات ، فكذلك الشباب سنٌّ يألف فيها الناشئ كلَّ ما يراه حادثاً أمامهُ ويعتاد عملَه ، حتى إنَّ نفسه لتكون خبيثةً أو طيبة ، وفكرَه فاسداً أو على العكس من ذلك ، على مثال ما اعتاد فى البيئة التى عاش فيها ، وألف من أحوال المجتمع التى تحدث أمامه وتؤثر فى فكره وفى نفسه

وما دامت حال الحياة تقتضى المخالطة ، فالإنسان على الرغم منهُ دارج بين أمثاله ، فله أن يحذوَ حذوهم ، وله أن يميِّز بين المستنكر والمليح ، وأن يعتبرَ بنتائج الأحوال فى غيره من الناس ، فيهذّبَ نفسه قبل أن يقصد إلى الضارّ من تلك النتائج ، وقبل أن تصيبَهُ الأحوال المنتجة إياها . فما الناشئ بين الجماعات وفى ميدان الحياة ، إلاَّ مثالُ المحارب فى ساحة القتال و بين المعارك والأخطار ، يبغى اتقاء هذه ما استطاع ، ويحتال للفوز مع السلامة . كذلك الشاب فى مضمار الحياة ومعتركها ، ينظر إلى المستقبل ويطمع بالوصول إلى

غايته ، ويستعين بما تقوّى بهِ من التجاريب والمعلومات الصحيحة لإزالة ما يعترضهُ من العقبات وما يقوم فى وجهه من الموانع . فإذا كانت ذخيرتهُ فاسدةً وهمتهُ باردة ، لا ينال ذلك الغرضَ ، ولا يبلغ الغايةَ ، فيُحدِثُ ذلك تأثيرًا سيئًا فى نفسه يصدعُها ، وربما كانت نتيجتهُ إتلافَ الفكر والخلق ، وتلك النفس أيضاً

الغارة على الحياة تظهر واضحةً فى فكر الناشئ ، وقويةً عند عنايته بأمر المستقبل . فما عدد من يقصد إلى ممارسة التمارين العملية يزداد تباعاً ، والرغبة فى الوصول إلى الغاية من الحياة تقوى من آونة إلى الأخرى ، مع ازدياد المزاحمة على موارد العمل . وهذه الأحوال ما هي إلاّ نوعٌ من المناوشات الجدّية التى تسبق المعارك الشديدة ، والتى تقوم بين الناس فى كل مكان ، بسبب ما تقتضيهِ أحوال الحياة من التنازع على موارد الكسب ، وعلى المرافئ الاقتصادية . ومن المتعذر على الإنسان الحيادة عن هذه الحرب الضروس ، ما دامت الضرورة تلجئه إلى الاحتكاك بالجماعة ، وإلى مصادمة منافعه المادّية منافعَهم ومطامعَهم

وليست هذه الحال قاصرةً على من يعنى بالمسائل الاقتصادية ، ويقضى حياته بين الأعداد والأرقام ، وإنما هي أيضاً نصيب من ينجع إلى الحرَف الحرّة والأعمال المستقلة . فكل احتياجات الإنسان

من مقتضيات العيش والحياة تحدوه إلى الاشتغال بأمرها ، وإلى الاهتمام بشئون الاجتماع ، على الرغم منهُ

***

إن بقاء الحياة يستدعى نيلَ كل مقتضياتها ، والرغبة فى تحقيق هذه الغاية هي غرض كل حيّ على وجه الأرض. فلا مكان للاعتراض على رغبة الناشئ فى وجوه الكسب وانصرافه إليها ، ما دامت مصاعب الحياة وما يتخلّل طريقهَا من العقبات ، لا يتذللان بدون المال

ولكنّ هنالك فرقاً عظيماً بين الوقوف عند نيل هذه الحاجات لمجرد حفظ الحياة ، وبين استخدامها واسطةً للوصول إلى ما يقتضيه العلم من الغايات السامية ، وإلى ما يغرى بهِ الضمير من الفضل والمجد وكل ما نلحظهُ من حركة العالم فى المسائل الاقتصادية ، ومن اتّجاه الأفكار مع رغبات النفوس ومطامعها ، وما يدل عليهِ سلوك الناشئين وميولهم ، كلّه يشير إلى حصر العالم كلّ أمانيه وقواه ضمن دائرة المطامع المادّية ، وإغفاله ما عداها إغفالاً تاماً

ها الفريق العظيم من الشباب همُّهم المفرد الوصول إلى ما يظنونه الغاية . فالبعض تحمله القناعة على الاكتفاء باليسير من المطالب ، والبعض الآخر لا يقنع بالكثير ، ولا يرى نيل المطموع به غاية تقف

عندها مطامع النفس ، بل يدفعه الجشع إلى مداومة المنازعة والمسابقة ، وإلى حب الاستئثار بالمنفعة

ولو اقتصر العراك على المزاحمة ، وعلى استعمال القوى والمواهب فى الوجوه التي حدّدتها النظامات ، لهان الأمر . أما والجشع وحب الإثرة يغريان الإنسان بالاحتيال لنيل الأماني ، ويسوقان العالم إلى ارتكاب ما حرّم ومنع ، فإن هذا السلوك الضارّ بالأخلاق الفاضلة المخالفُ النظامات الدينية والوضعية ، يقوّض دعائم الأدب ويهدم عماد المدنية الصحيحة . فنسبته إلى المرء تجرّده من كل مزايا الإنسانية ، وتصوّره فى أقبح صوَر الحيوان المفترس ، مهما كان لهذا السلوك من أنصار وشيعات يبرّرونه ، ومهما أُخفي قبحه وما اشتمل عليه من العيوب وراء ما يكنى بهِ من الاسماء (الصورية) . وأنّى للأسماء مهما ضخمت أن تخفى ما يدل عليه من سفالة المبدأ وعقم الفكر وخبث النية والمكر السيىء ؟ فلو كانت التسمية وحدها كافية لإبدال حقائق المسميات وصلتها بالفضل أو بالرذيلة ، لاكتفى اللص أو القاتل بإبدال اسم الجريمة بآخر يغلّ عنه يدَ العدل ، ويوقفهُ فى صفوف الكرام الفضلاء

إن هذا النفر الدهاة لهم شراهة الذئب ، ولكنهم يؤثرون على جرأة وطيش هذا الحيوان حكمة وحيَل الثعلب ، فاتخذوا من الحكمة

والعقل وسائل لخدعة الغير، ولسلبه ما لا ينالون منهُ بالرضا والقبول، اؤلئك شيمتهم التحوّل مع المبادئ عند الضرورة تحوّل ألوان الحرباء والبحث عن مواضع الضعف في الغير لنيل ما يطمعون بهِ بواسطتها فما الحياة في عرفهم إلا كرقعة الشطرنج ، وما العواطف والأفكار والمبادئ والمنافع ، التي لهم وللغير، إلاّ كقطع اللعبة يحركونها على وفق ما تقتضيه الحال ، أو يضحّونها طمعاً في نيل ربح أعظم . وما اللطف والكياسة ، على زعمهم ، إلاَّ ما يلقى في الشراك من الحبوب لاجتذاب الطير واقتناصه . وما يسميه علم الأخلاق رذيلة أو نقيصة ما هو في اعتبارهم ، إلاَّ مهارة ونبوغاً ، لأن قلوبهم جرّدت من كل عواطف البشرية ، وما احتوت نفوسهم حبّ الذات والخبث

ليس من الصعب نجاح أمثال هؤلاء الدهاة ، ولا نيلهم ما يطمعون بهِ، فإن من أهون الأمور ظهورهم، وسبقهم أهلَ الفضل الصحيح وذوى المبادئ الثابتة والأخلاق الفاضلة . ولكنّ من يرقى ذروة المجد ، من هذا الفريق ، ويطأ بنعليه الساكنين ، غير حقيق بحسد الناس إيَّاه ، لأن قيمة الحجر لا تقدر بالمكان الذى يوضع فوقه ، ولا بالصندوق الموشى الذى يحتويه ، وإنما بكرامته . فهل لهؤلاء قيمة ذاتية وكرامة ؟

***

يقال لغير ذلك الفريق من الراغبين فى الحياة : اعملوا فإنما الحياة العمل ، ولا تضيعوا الوقت سدى فانما الوقت ثمين ، واحذروا أن تهاونوا أو تساهلوا فإنّ التفريط صغار وإنّ الفوز ليتبع المنافع لا العواطف . وبهذه النصائح وأمثالها يجردون الناشئ من كثير من مبادئ الإنسانية ، التي كانت فى كثير من الأزمان فخرَ الانسان ودليلَ المدنية والرقيّ

كل حيّ ولا مراء يرغب فى الحياة وفى السعادة ، ويقصد إلى الطريق المؤدية اليها . ولكن الحياة الراقية ليست هي التي تلاشى أسباب المكرمات ، وتحصر نتائج العلم فى سبيل كسب العيش . لقد وهب الخالق الإنسان المخلوق القلب والعقل والضمير ، فانطلق يحصّل برغبته العلوم كالتاريخ والطب وعلم التوحيد مثلاً . فهل يتعلم لمجرد استعمالها وسيلة لنيل القوت والكساء ؟ وهل إذا كانت هذه غايته المفردة ، تكون حياته فى نظر العقلاء حيـاة بالمعنى الصحيح ؟ وهل هذا السبب وحده هو الذى يغرى بإنهاك القوى العقلية في فهم الجبر وعلوم الكيمياء والطبيعة ، وفى عمل العمليات الجراحية الدقيقة فى جسوم الحيوانات الحية والميتة لإفادة علم الطب؟ ألا إن البلاهة بل الموت خير من هذه الحيـاة ، إذا كانت تلك الغاية هي الغرض من الحيـاة ! الإنسان لا يحيي بالقوت وحده ،

ولا يمكن أن يعمل أو يعيش إلا إذا كان انسانا حياً قبل كل شيء . فلماذا يريدون بهذه التعاليم المادية تجريد الإنسان من خصائصه الغريزية وجعله كالجماد لا أكثر ولا أقل ؟

لا بدّ من الحياة ! هذا صحيح ، ولكن لا بدّ للانسان فى الحياة من غاية ، ومن عاطفة تشعر بحياة الضمير ويقظته . فمن لم ينشط فى شبابه إلى نيل هذه المميزات ، تعذّر عليه نيلها بعد ذلك الزمن ، واستحالت عليه معرفة الحياة . فلهذا السبب يجب أن تكون العناية غير قاصرة على تعلّم المهن وحدها

من الحسن تعلم الفلسفة والتاريخ والفنون ، ولكنّ الأكثر لزوماً أن يكون الفرد إنساناً كاملاً أوّلاً ، ثم يحترف ما رغب فيهِ من الحرف ، أو يرتدى ما شاء من ثياب الفلاسفة والعلماء . فإذا أهمل الأساس ، وبلغ بالمهارة والنبوغ ما يقصّر عنهُ كل الناس ، فليس بهِ يحمل اسم الإنسان ، ولا بهِ تفخر الإنسانية

العمل وفقاً لسياسة المنافع وحدها ، يهدم كل صروح الإنسانية ومميزاتها الحسنة ، لأن المنافع تنكر العواطف ، والحق ، والشرف ، ولا تحفل بالجمال ، والقداسة ، ولا بكل ما هو جليل . فمن مبادئها أن ما لا يساوى شيئاً ، ولا يؤدى إلى الربح ، لا تكون له قيمة على الإطلاق . وهذا المبدأ منشأ الخطأ والغرور ، فإنَّ أثمن شيء فى

الحياة هو ما لا يباع ولا يشرى .

فتعليم الناشئ اتباع سياسة المنافع نكبة من أقوى ما يصيبه في الحياة، لأنهُ يحدوه إلى الابتداء بما قد ينتهي إليهِ غيره ، ومن يجيء إلى الحياة في ضعف الشيخوخة لا يعرف لذة العيش ، ولا تسرّه الحياة

يقولون إن من يولد فاقد البصر تهون عليهِ مصيبته ، أكثر ممن يكون مبصراً ثم يفقد نعمة الإبصار . والحال أن الأوّل لم يعرف أبداً هذه النعمة ، ولم يذق من الحياة لذة التمتع برأى ما فيها من نِعم الله وبدائع أعماله . فلمن رآها وتعرّفها سلوى بإدراكها عن الوصف ، فيكون له من عقله ومن سمعهِ واسطة للتلذذ بما منعهُ العمى من رؤيته . هكذا من جرى من نشأتهِ على مقتضى سياسة المنافع يكون أكثرَ شناعة ممن تعوّدها في آخر أيام حياتهِ . فإن الثاني وإن فسدت مبادئه ، يبقى بينها ما يشعر بتعرّفهِ الإنسانية ، وبتمييزه بين صنوف القبائح ، بخلاف الأوّل ، فإنهُ لا يحترم غير المنافع ، ولا يعرف سواها ، ولا يقصد إلاَّ إليها ، ولو كانت تجيء من طريق ينافي ما نسميهِ الأدب والشرف

***

غاية الإنسان هي السعادة ، ولكن السعادة التي ينشدها هي

التى يظن إمكان نيلها بالرغبة فيها وتوقان النفس إليها . وما السعادة التى تجىء بإرضاء الميول النفسية سعادة بالمعنى الصحيح، وإنما هي أثر من آثار فساد الأخلاق ، ونتيجة من نتائج الهناء الصورى الذى أوجدتهُ المدنية الكاذبة

لا مشاحة فى أن ما أوجده العلم ، من أسباب الرقيّ والمدنية ، قلَّل عناء الإنسان فى قضاء حاجاته ، ولكنهُ عوّده الراحة ، وكان سبباً فى وجود عدد غير قليل ألف البطالة ، فلا يعيش إلاَّ للأكل وللتلذذ بالملاهى ، وإلاَّ للإغراء بالكسل . ولماَّ كانت النفس ترغب دائماً فيما منع عنها وتمتَّع بهِ غيرها ، لهذا وُجد بين الخلائق كثيرون يطمعون بالراحة والبطالة ، ويختارون لأبنائهم هذا النوع من العيش مع البذخ والترفه ، فأفسدوا العالم ، وأوجدوا بين الناشئين من له رقة النساء وزينتهنّ ، وله من قلَّة الحلم ما يفقده فى نفس الغير. فإن الواحد من أولئك المخنثين يودّ لقلَّة صبره لو أن أحوال العالم تحكى فى سرعتها القطار السريع ، تتبدَّل فى نظر راكبه المناظر، ولكنهُ لا يرضى إلاَّ أن تكون فى هذا القطار عربتا الأكل والنوم . . . .

أدخل غرفة واحد من هذا الفريق المترفه ، وحدّث بما ترى فيها من الطرف والنفائس. فمن أبسطة لا يستقرّ عليها القدم

لنعومتها ، ومن مقاعد كالمضاجع ، ومن وسائد تغرى بالوسن ، ومن صوَر وتماثيل أفضل ما فيها أنّها تدعو الناظر إليها إلى السكون والجمود ، ومن وسائل للتزين تنسى المرأة ما ألفت وما تاقت إليهِ

يقولون ما وجه الضرر فى هذا الذى تعيبون على المترفه التنعُّم بهِ وما هو إلاَّ من كمالات المدنية الراقيـة ؟ الضرر ليس فى وجود هذه الأشياء ، وإنما فى إلفة الإنسان إياها ، الضرر فى اعتياد البذخ وفى عدم استطاعة المترفّه الإقدام على سفر يرجى منهُ نفع ، لعجزه عن استصحاب الـكماليات المألوفة ، ولضعفه عن التخلى عمَّا اعتاد وألف . والضرر الأعظم إنمـا هو فى حلول حبّ هذه الأشياء التافهة مكان حبّ الفضل والمجد ، وفى تفضيل الإنسان إياها عن كل ما عداها ، وبحثِه الدّائم عن أسباب التنعُّم بها فى كل أحوال الحياة حتى عند الزواج . الضرر فى كون هذه الأشياء إنما تجرّ أحياناً إلى المنازعات بين الولد وأبيه ، والزوج وزوجها ، بل كثيرًا ما تفضى إلى اختلال الثروات ، فخراب البيوت ، ففقدان المراكز الاجتماعية والـكرامة

إن من الواجب معرفة الشاب قيمة المال ، واعتياده حسن التصرُّف بهِ . فإن وصوله إلى يده ، بدون تعب فى كسبه ، سواء أمن طريق الإرث ، أم من الربح الفجائي ، لا يجعل له فى نظره

قيمة صحيحة ، فيسيء استعماله ويضيعه عبثاً . وحسن التصرّف بالمال ليس من المواهب الغريزية ، إنما هو نتيجة التعليم والاختبار والاعتياد . وهو من المسائل الاجتماعية التي يتوقف عليها فساد أو انتظام حال الفرد ، والعائلة ، والجماعة من الناس ، بل والعالم أجمع

من أقوى اساس علم الاقتصاد معرفة قيمة المال بالنسبة إلى ما يلاقيه العامل من العناء فى كسبه ، فإن من يتعب فى كسب الدينار يشق عليهِ سوء التصرف بالدرهم . وليس الغرض من هذا استملاح الشحّ ، فإنهُ من أقبح الصفات وأردإ ما يتهم بهِ الإنسان من العيوب

وضرر المترفه العاطل ليس قاصراً على شخصه ، بل يتعدّاه إلى غيره ، لأنّ مظاهر رفاهيته تغرى بالكثيرين من الشباب إلى الاقتداء ، وقد لا يكون لهم مثل موارده للإنفاق ، فتراهم إذا ما ملكهم الداء كقطعة الخشب فى الغمر المضطرب ، ترتفع مع الأمواج ، وتهبط وفقاً لاضطراب الماء وتقلبات الريح . كذلك أولئك النفر فى لجة الحياة تدفعهم الأقدار وتخفضهم الصروف ، ليس لهم من حولٍ ولا مشيئة ، غايتهم من الحياة الطعام والكساء والتلهى ، ثم إنكار النعمة

اؤلئك نفرٌ أعمى الغرور بصائرهم ، فما عادت تبصر إلا ما يقود إليهِ النزق والمروق ، وأصمّ آذانهم عن سماع النصح ، فصاروا

تغضب الواحدَ منهم نصيحةُ الحكيم المشفق ، كأنما هي الشكال في جوانب الدابة الحرون ، فتثور ثورته النفسية ويسخط على الدهر وعلى فضول أبنائه ، ويحسب من المصائب الكبرى عناية الناس بإرشاد من يغوى واهتمامهم بردع من يلقي بنفسه إلى التهلكة

***

حذار من هذا النوع من المعيشة ، فإنها كالمرض العضال تسهل الإصابة بهِ ، ويتعذر البرء منهُ . فالبطالة تؤدى إلى الجبن ، وهذا إلى الكذب والخيانة ، وكثيراً ما تفضي إلى الاحتيال ، وإلى الزيغان عن جادة السبيل السوي ، ومن تنكّب عنهُ وغوى تعذّر عليه الهدى

والمقامرة ، وهى من نوابع البطالة والترفه ، من الأدواء الخبيثة التي تصيب كثيراً من شبان هذا العصر ، والتي يرونها من لوازم المدنية ودلائل الحضارة . وهي صنوف ، فمن مراهنات على سباق الخيول ، ومن لعب تتنوع بتنوع أفكار المتآمرين ، وحيل السارقين ، وميول اللاعبين . وكم من فئات من الناس منها رزقهم ! وكم منهم أتعسته فبات يؤمل لفتة الحظ إليهِ بعد توليه عنهُ !

قد يظن البعض المقامرة ألطف أذًى من السكر ، والحال أنها رأس الفساد وشرّ المصائب ، ومن أقوى أسباب تلف النفس ، وخبل

العقل، وضعف القوى المدركة. فالمقامر يملكه الهوس، وينقصهُ إدراكُ الحقائق، ويستولى عليهِ الوهم فيجعله يصدّق الخرافات والخيالات، ويبلغ بهِ ضعف الإرادة إلى حدّ الاستهانة بالقبيح، وإلى ارتكاب المنكر بدون حياء. والمرء إذا وصل فى سقوطهِ إلى هذا الحدّ يكون غير خليق بعدّه من الآدميين

***

إن الحبّ، وهو الدعامة الأساسية لاختيار الزوجة ولتكوين العائلة، صار لفظه لا يدلّ على المعنى الذى وضع للدلالة عليه. وليس هذا لعجز العقول عن إدراك معنى هذه الكلمة السحرية، وإنما لانصرافها إلى شتات من صنوف اللهو، انتحل له الباغون هذا الاسم ليكون ستاراً للرذيلة والدعارة

والتورط فى هذا السبيل المنكر، وحسبان المرأة كالتمثال تقدر مثله بما فيها من دلائل الجمال وحسن التركيب، وتوهُّم الحكمة فى معاشرتها عند الرغبة فيها، وفى تركها عند سآمتها، بدون أن يكون للاتصال والانفصال أيّ قيد غير الرغبة فيهـا أو عنها، كل هذا عوَّد المغرورين النفورَ من الرابطة الصحيحة بين الجنسين، وعدمَ إدراك معنى الزوجية، وعوّدهم تنزيلَ المرأة فى غير مرتبتهـا من الاعتبار والقدر، وافتراض النساء جميعاً فى درك واحد من الحقارة

والجهل . كل هذا كان سبباً فى فساد نظام العائلات ، وفى مضاعفة علل الاجتماع ، وكان أيضاً دلائل قوية على فساد الأخلاق وعلى السقوط الأدبى

يشكون مرّ الشكوى من جهل المرأة ، ومن انصرافها إلى الزينة ، ومن ضعف إدراكها ، ومن كثير مما يعدّده الكتّاب صباح مساء فى الكتب وفى الصحف . ويقررون هذه الأسباب أعذاراً لمن تورط من الرجال فى حمأة الرذيلة ، وتدهور إلى حضيض السفه ، وسقط فى اعتبار الدين ، والأدب ، والمدنية . ولو أن خصوم المرأة ، قبل أن يطلقوا ألسنتهم بالخفض من قيمتها ، تطلعوا إلى عيوب الرجل وإلى حاله الشائنة وقدر نسبتها إلى الفضل ، أو إلى الرذيلة ، ما رفعوا عقيرتهم بالشكوى من المرأة وبالصراخ تنفيرًا منها

ليس من ينكر أن بين أفراد الجنس اللطيف ، فى كل صقع وفى كل بلد ، فريقاً سقطنَ إلى الدركـ السافل ، ولكنّ بين الرجال أضعاف هـذا العدد سبقوا المرأة إلى أسفل من دركها فى هاوية الفساد . وما يمثل هؤلاء من الجنسين نفخر الإنسانية ، ولا هم من عداد الناس ، ولا كل الناس على هذه الحال الشائنة

إذا كان البعض يعيب على المرأة الجهل ، ويراها فى غير مستوى الرجل من الفضل ، ويجعل هذا سبباً للتنفير من الزواج ، ومبرراً

لانتياب أماكن اللهو، ولمعاشرة الساقطات، فإن للعقلاء أن يتساءلوا عمّا إذا كان أفراد هـذا الفريق يجدون بين أمثالهم الساقطات ما ينشدون من النساء المتعلمات المهذبات، ذوات الأدب الجم والعقل الراجح والفضل الصحيح؟ ما تلك إلاّ اعتذارات كاذبة، وشكوى لغير سبب سوى تبرير السفه

إن العائلات الكريمة لا زالت تعني بتربية أبنائها وبناتهـا، والأدب لا زال حلية الفتاة والمرأة، ولكن من أعنى من هذا الفريق الكريم، لا يعرض فى الأسواق، ولا تصل إليهنّ أنظار السوء، ولا هنّ متاع ذوى العقيرة المرفوعة والأقلام المغلولة. أولئك يسوءهنّ ما يرمى بهِ الجنس بأكمله، من رشاش قلم عاثر، أو هراء كاتب خاسر

لفتة واحدة إلى الصاخبين تنبه الغافل إلى ما فيهم من العيوب والسيئات، وتوقفهُ على مقدار السقوط الذى وصل إليـهِ بعض الشباب بفضل العبقرية الكاذبة

ما للناس والمرأة؛ علّموا القوّامَ عليها الرجل، ربوه تربية راقية، ليميّز بين المليح والشائن، فيربى هو المرأة ولا يتركها على الحال التى تحمل على هذه الضوضاء. إن الحكم على حال أُمّة، من السقوط الأدبي أو من الفضل، يكفى له النظر إلى حال المرأة، لأنها موضوع

عناية الرجل وتحت رقابته ، بل وهي أمة التي تؤديه وتهذب أخلاقه . فسقوطها دليل على سقوط الرجل ، ورقيها عنوان فضله ، وعنوان رقي الأمة

ليس الغرض من هذا الرد على المهاترين ، لأن المكابر لا يقنعهُ الدليل الصحيح ولا يغلبه الحق ، وإنما الغاية تمثيل الحال الحاضرة وما فيها من الحقائق المؤلمة . فالجنسان النشيط واللطيف فى حاجة إلى التطهر من كثير من العيوب ، وفى افتقارٍ إلى التربيـة والتهذيب ، لأن المرض أصابهما جميعاً

ومحاولة إصلاح العائلة تكون عبثاً ، عند عدم وجود الحب دعامتها الأساسية . فمن المتعذر وجود هذه العاطفة الروحية الشريفة ما دام الناس ، فى هذا العصر ، لا يعرفون معناها الصحيح ، ولا تأثيرها النافع فى الشعور والعواطف والقلب ، والأخلاق . ومن المحال وصول المدارك إلى فهم هذا المؤثر الروحي ، وبلوغ القلب إلى التأثر بهِ ، ما دام الناشئ يشب محوطاً بما نرى من أسباب الفساد والبواعث على الزيغان . ولو أن الشباب لم يصل إلى أسماعهم غير ما وُضع من الأغانى العصرية ، للدلالة على معنى الحب وعلى الغرض منهُ ، لكفى بهِ لوأد هذه العاطفـة فى قلوبهم ، ولصرف أفكارهم إلى ما ينغمس فيهِ غيرهم من الفساد . فـكل هـذه الأحوال رموز إلى الانحطاط الأدبى وإلى ضعف الأخلاق

يقولون إن حبّ التظاهر بالعفّة والوقار هو الحامل على إيراد هذه الانتقادات ، وعلى تسويغ سماع الأغانى عند الرغبة فى ترويح النفس . والوقار ما هو فى العبس ، ولا الخلاعة فى التفكه والترويح ، ولكنّ الضرر فى السكون إلى دلائل الرذيلة ، وفى قصر المروّحات على الأنواع السافلة . فلو أن الأغانى نُقيت من أمارات السفه ، وخلت من المغريات بالدعارة ، ولو هي رقت إلى غير تلك المعانى الساقطة ، لكانت حقيقة من المروّحات ، ومن أسباب جلاء الهموم وتنسية الأحزان ، وتنشيط النفس

علم الله أن الشباب بريئون إلى حدّ ما من تبعة هذه الحال السيئة ، فإن الجريمة لاصقة بمن أوصلوا العالم إليها ، اؤلئك الذين يصوّرون المرأة فى أقبح ما تدركه العقول من صوَر الخبث ، ونكران الجميل ، والجهل ، اؤلئك الذين ينكرون العفة

إن ما ينشر ويكتب بصدد من المرأة ، لتجريدها من الصفات الفاضلة ، لأكثر إضراراً بالأخلاق منهُ بالمرأة ذاتها ، ولأقوى تأثيراً فى قلب وعقل الناشئ منه فى الرجل الناضج . فينشأ عاجزاً عن إدراك حقيقة الحال بعيداً عن الصواب بُعد الحق عن الباطل ، وينساق مع تيار الضلال العام ، ويشمله الغرور ، فلا يعود يرجى صلاحه ، ولا بهِ تحسن الحال

فهلا حان وقت الحاجة إلى تنشيط الهمم لكسح هذه الضلالات ، وإلى العناية بالمرأة والعائلة ، وبكل ما يعدّ من دعائم التكوّن ومن ينابيع الحياة ؟ أليس من الواجب فى هذا الزمن ، وقد عمّ الفساد وعلت الشكوى منه ، أن يرجع الناس إلى الأخلاق الفاضلة ، وإلى نصرة الأدب ؟

***

إن ما يحوّط الناشئ ويراه من الأعمال والأفكار، ويسمعه من الأقوال ترتسم جميعاً على فكره ، بحيث يكون هو الآخر صورة تامة لتلك الأحوال ، لا يميز بينها وبين الأولى إلا ما يضيفه إليها ، من القبح نزق الشباب ورعونة الصبا ، وناهيك بما يغرى به الأثنان ....

إذا كان الفساد شاملاً ، والشكوى من تلف الأخلاق والتربية عامة عالية ، فهل من الصواب منع الشاب من مخالطة العالم ، وقصر تعليمه على المدرسة وعلى الكتب النافعة ؟ قد يرى هذا من الوجهة النظرية أفضل من إفساد خلق الشاب بالمخالطة والاقتداء ، وبتأثير المرئيات فى نفسه وعقله . ولكنّ الحكمة تقتضى ، على العكس من ذلك ، عيشه وسط المجاميع ، حتى التى يتناولها الانتقاد إذ لا بدّ له يوماً ما من هذه المخالطة ، ومن الإشراف على الحياة

فى معتركها الصحيح . فخير للشاب إلفة ما فيها من الخير والشر ، ووصول الشكوى من الحال إلى أذنيه ، حتى يميز بين النافع والضار وبين المحبّذ والمنتقد

ليس من ينكر ما فى مخالطة الناس من المضارّ والأخطار ، التي تهدّد الأخلاق بالفساد والتلف ، ولكنها مملوءة بالعبر وبالدروس القاسية . وهذه تمتاز على العلوم النظرية بأن ما يتعلمه الشاب ، مما يلمّ به من المحن والتجاريب ، يجعله كثير الصبر والاحتمال ، قليل الطفرة ، شديد الحذر ، بعيد النظر

ما الحياة نظرية وضعية ، ولا هي طيف خيال ، وإنما هي أحوال حادثة وأدوار متبدّلة ، لا تدرك حق الإدراك بدون النظر والسماع ، وبدون الممارسة والتنقل بين ظروفها المزعجة واللطيفة ، من الفرح إلى الحزن ، ومن الابتهاج إلى الانقباض ، ومن اليأس إلى الأمل . فإن لكل من هذه الأحوال المتغيّرة أثراً من النفس وفى العقل يكوّن بمجموع الدرس النافع ، فالتربية الصحيحة

وكل ما فى الحياة من دواعيها وأحوالها الطيبة والرديئة ، بتأثيرها فى الناشئ ، تقويه أو تضعفه ، على حسب النوع المؤثر واستعداد الشاب للتأثر به ، وعلى وفق ما له من أسباب الوقاية من الفساد

وما يصح أن يقال عن الفرد فى المجتمع العام يصح أيضاً ذكره

عن العائلة ، فإنها لا تخلو من وجود أسباب الخطر عليها ، ومن تأثير أحوال الاجتماع فى أبنائها تأثيراً قد ينتقل إليهم بالعدوى أو بالاقتداء بغيرهم من أفراد العائلة ومن الأجانب عنها

والشكوى من الفساد الذى تطرق إلى العائلات ، ومن الخلل الذى اعتور نظامها ، يرتفع بها صوت كل من يميز بين المليح وغيره. فمن معيشة غير طبيعية ، ومن مظاهر كاذبة ، ومن نقص فى مبادئ الاحترام ، ومن توتر فى العلاقات بين الرجل والمرأة ، وارتخاء فى الحب أشرفِ الروابط بين الزوجين ، ومن جهل بالتربية !

لا شك فى وجود كثير غير هذه من العيوب ، والأضرار التي تنجم عنها عظيمة الخطر. فأين للناشئ الساذج إمكان التدرج على الكمال ، فى حياة تلك حالها ووسط عائلة هذه بعض عيوبها . وكيف له أن يستقر على ما يجب أن ينحذاه ، ليكون فى مأمن من العثرة ومن تطرق التلف إلى نفسه الطيبة ، إن الطريق حزون ، والعقبات فيها جمّة ، فليس عجيباً ضلال الناشئ جادة الصواب ، وإنما يكون العجب عند سلامته مما يتلف نفوس العالم والأخلاق عامة . وما الذنب فى هذا الفساد خاص بفرد واحد ، أو لاصق بفريق معيّن وإنما هو راجع الى المجتمع الإنساني كافته

إن من المحال محوُ كل العيوب دفعة واحدة ، بغية إصلاح الحال

ولكن من الميسور، ومن العقل ، البدء بالاحتفاظ على الناشئين من التلف ليتكوّن منهم اجتماع جديد يسرُّ النفس ويرضيها من الحياة .

فهل من مذكر ؟

البحث الخامس

التقليد

إذا كان بين الناس من يفكر ، ويظهر دلائل الحياة بنشاط الحركة ، فإن بينهم أيضاً من ينساق مع مجرى الأحوال بدون روية ولا تفكير، وبدون أن يدري ما هو فاعل ولا الغرضَ منهُ ، ولا إلى أي طريق هو مسوق . فالانقياد الأعمى عامل رديء مؤثر في حال العالم، وسبب من أسباب التأخر والانحطاط . وليس شيء أبلغ ضرراً من تسرب روحه الخبيثة إلى عقول الناشئين ، لأن الرغبة في تحدّي الطريق المطروقة ، وفي انتهال المورد المورود ، وفي انتظار قفوّ الغير أثر نجاحه ، كلها من دلائل ضعف الهمم وخمول النفس ، إلاّ أنها من الأسف ربَت في هذا العصر عنها في الأزمان الخالية

ومن بين أنواع الخطأ العام ، التي تنزل من الناس منازل الحقائق ، اتهام أهل العصور البائدة بالخمول ، وبقلة الاختراع ، وبالتزام الحال الواحدة لقلة المادة ، وبضعف العقول والإرادة ، ومنها

نسبة تقيض هذه التهم إلى هذا العصر. والحال أن أولئك الذين تنكر عليهم ما لهم من المحامد، كان ما لهم على قلته متعدّد الأنواع والأشكال، على العكس مما فى هذا الآن من تعدّد أشكال النوع الواحد

فالتقليد الذي لم يبلغ، فى زمن من الأزمان، الحدّ الذي وصلنا بهِ إليهِ، أخذ فى الزيادة وسرعة الانتشار، وأخذ الناس يتقلبونهُ ويجرون على منهاجه بدون تمييز أو اعتراض، كأنما أصابتهم جنة تدعى الولع بالتقليد

والمعروف أن التسرّع فى القبول يفضى إلى مثله عند النبذ، لهذا نرى أن ما يتهافت عليهِ الناس، من الأزياء الحديثة، والأذواق الجديدة، يتركونهُ بعد وقت قصير، بدون أسف ولا تردد، للاستعاضة منهُ بنوع آخر، يكون له مثل حظ الأوّل فى البداءة والنهاية

إن قوة الإختراع فى هذا العصر (عصر العلم والصناعة) انصرفت إلى مضاعفة وتكثير أشكال النوع الواحد، مع الاحتفاظ على الأصل المفرد. وهذا الإفراط فى خدعة الأنظار يضاعف الميول ويجدّدها، ويعوّد الناس التقلّب وعدم الثبات، ويقضي على الكثير من الفنون الراقية. فإذا ما أظهرت هذه نوعاً له جودة وقيمة فنية

يتناوله التقليد فيعبث بهِ ، ويجذب إليهِ الأنظار حيناً من الزمن ، ثم ترتد بعده الميول عنه ، وتعافه النفوس

البحث فيما نحن بصدد منهُ ، يكاد لاينتهى منه المنتقد ، ولكن الغاية ليست مجرد الانتقاد والتعييب ، وإنما إدراك الصعوبة التي تحول بين الإنسان وغايته من الاستقلال فى العمل ، وتقوية الهمة ومضاعفة النشاط . فإنهُ لا يمكن للشاب أن يتحرر من قيد التقليد ومن مجاراة الذوق الجديد ، لأنهُ إذا خالف ماجرى عليهِ غيره عدّ عمله بدعة ، ومخالفته هرطقة

فلو أن الباحث نقل نظره بين صفوف الناشئة والفريق العظيم من الرجال لراعهُ تماثلهم جميعاً فى انتقاء النوع والزي المتماثلين ، من الثياب والقبعات والطرابيش والأحذية وسائر أنواع الملابس . فكأنما البصر عند شخوصه إليهم لايرى أشخاصاً من الآدميين ، وإنما صوَراً وتماثيل خرجت من مصنع واحد . ومن يدريك أنك لا تجد اسم ذلك المصنع على الثوب ، وعلى الحذاء وعلى القميص بل وعلى كل قطعة من الثياب ؟

وما حظ الخصال بأفضل من غيره ، فإنها تنهج هذا النهج الذى تحدّاه الناس فى اختيار الثياب . والأفكار والآراء لها مثل تلك الحظوظ . إن العربة ، عند مرورها فى الطريق ، تحدث عجلاتها

أثراً فيها ، يهتدى بهِ من يقفو العربة . وهكذا الناس يجرون وراء الرأي السائد ولو كان غير سديد ، فيكون هو رأيهم لا يعرفون سواه ، ولا يرتأون غيره ، ولو هم تركوه ما استطاعوا التمييز ولا تقرير سواه ، فلا قيمة إلاّ لما رأوه أو سمعوه أو جروا عليهِ جميعاً . هذه الملاحظات وإن لاحت غير خطيرة إلاّ أنها من أمهات المسائل الاجتماعية التي يرتكز عليها رقي أفكار الإنسان فى المستقبل

يقولون إن التعليم فى المدرسة كفيل بتربية الفكر وبتقويته وتدريبه على الاستقلال فى الارتأى وعلى عدم الانقياد الأعمى . والحال أن التعليم فى المدارس تناولته أيضاً يد التقليد ، فما هو فى المدرسة الواحدة إلاّ مثال ما فى كل مدرسة أخرى من نوعها ودرجتها

ليس من ينكر وفرة عدد المدارس وازديادها من يوم إلى الآخر ، ولكنها جميعاً تجرى على منهاج واحد فى التربية والتعليم والنظام . فقد حدّدت أوقات الدرس على صورة واحدة ، وحصرت المواد حصراً تقيد بهِ المعلم والمتعلم ، وتحدّد نموذج التعليم على صورة لا تسمح بالركون الى غيره ، ثم تقيدت الدراسة بامتحانات معينة لا تترك سبيلاً للانطلاق من قيود تلك النظامات ، ولا للنزوع إلى الاستقلال والتعليم ، أو الحرية فى التحصيل

والتعليم على هذه الصورة نوع من الاستبداد والتعسف ، جنايته

واقعة على العقول والأفكار، ونتائجه ضارة بالمجتمع الإنساني كله ؛ بسبب ما تحدثهُ من ضعف المدارك والتعليم المشوّه

إن النظامات المدرسية الحاضرة دقيقة تدل على اقتدار واضعيها وتحدو إلى الإعجاب بهم، ولكنها مع ما لها من المزايا والدقة ، لاتخلو من الإضرار بالمتعلمين . وأوّل ما يلحظه العقل من الضرر حصر التعليم، فبينما تكون الغاية ترمي إلى تغذية عقل الطالب بالعلم الغزير، إذا بهذا الحصر لا ينيله إلا نتفاً مما يبغي ومما يجب أن يتعلم ، فيقتل رغبته فى التعلم ويعدم شوقه إلى العلم، ويمنع الذكاء من الشذوذ والظهور

فإذا كان هذا هو حال المدرسة التى تربى الناشئة ، فهل لنا أن نؤمل من هؤلاء أن يكونوا رجالاً يصلح بهم الفاسد من حال العالم، وتنتقل المدنيـة إلى أرقى من منزلها، وتدنو الأخلاق من الفضل والكمال ؟ هب أنهم رغبوا فى هذا، وأن لهم إرادة قوية وعزيمة ماضية، وصبرًا لا يفنى ، فهل لهم غيرهـا من العلم الصحيح والعقل الراجح، والرأي السديد، ما يوجهون بهِ تلك القوى المنفذة إلى الغاية التى تقصد إليها ؟

إن محبي الإنسانية تحرّق قلوبهم أسًى على حال العالم، ويؤملون الإصلاح على يد من يجيء بعدهم من ناشئة اليوم . ولكن ما يزودونهم بهِ من العلم والتربية ، وما يقدمونهُ لهم من بضائع الأدب

المزجاة، يطيل أمد ذلك التحرُّق، ويحمل على اليأس من الإصلاح المنشود.

الأمل الضعيف محصور فى فريق الناشئين، فهل يتاح لنا أن يكون بينهم من لا تمنعهُ العقبات، المطروحة فى سبيل العلم، من الشذوذ عن قياس أمثاله، ومن النجع إلى مناهل العلم، وإلى تحصيل ما ينفع هذا العالم المتعس، فيطلقونهُ من الحصر والمحصور، ومن التقليد حتى فى التعليم والتعلّم؟

البحث السادس

روح التحزُّب

من مبادئ الحكمة الصحيحة تقبل الأحوال كما تجيء، والانتفاع بما فيها من الوجوه الصالحة بقدر ما يمكن. ولكن من تملأ نفسه روح التحزُّب ينحو على العكس من هذا، لأنهُ يبالغ فى تصوير الأحوال عند تقدير عيوب خصمه، وينكر حسناته ويعيبها، وغرضه السيء يحوّل كل الأحوال حتى النافعة منها إلى الشرّ، بدلاً من نسبتها إلى الخير. فهذه الروح الخبيثة إنما تتعارض دائماً مع روح التضامن العام، أقوى دعائم الإنسانية

والتحزُّب يفضى إلى تجزئة الجماعة، وإلى تصادم المبادئ

والغايات، مهما كانت سامية أو نافعة، ومهما كانت نفوس المتحزبين خاليةً من الميل مع الهوى والغاية الشخصية. فكل ما شذّ عن مبادئ حزب ما، يكون خارجاً عن غاية الحزب ومبادئه، ويكون بعيداً عن الصواب في نظر المتحزب. وهذا السبب وحده يفضي بالمتحزبين إلى عدم احترام مبدأ التضامن العام، وإلى النفور من العدل والحق، متى كانا إلى جانب مخالفيهِ. ويرى كل ما يفعله هو أو فريقه صواباً وعدلاً يؤديان إلى الخير العميم

هذه الروح الخبيثة تلقي على الأبصار غشاوة، تبصر معها فضائلَ الغيرِ رذائلَ وعيوباً، ومعتقداتهم خرافات وأباطيل. وتخلق في النفس حبّ التجسس والتنكيل، لأنها تحمل على التنقيب عن أحوال وخطأ الخصم للتشنيع عليهِ، وللتشفي منهُ عند افتضاحه وسقوطه. وتحدو إلى التغرير والخدعة، لأنهـا تكره على إنكار قدرة المزاحم وكفاءته، وتحمل الإنسان على نسبة الفضل إلى نفسه، وعلى التغنّي بالمحامد والمفاخر، وإن لم تكن لها آثار تدلّ عليها

الظواهر لا تدلّ دائماً على حقيقة الأشياء. وما مظاهر الأحزاب إلاّ ككل الظواهر فلا تتلاءم دائماً مع الحقيقة الخافية، فلو كان الطلاء الذهب يحوّل المعادن إلى معدن الذهب الثمين، لاغتنى الكثيرون من ذوي السلع المطلاة، وما احتاج الناس إلى المسبر.

ولكن الطلاء لا يؤثر فى جوهر المعدن ، ويبقيه على أصله وعلى ما كان له من القيمة الحقيقية . فبسبب هذا القياس تكون العمدة فى قدر روح التحزّب بمقارنة ظواهر الدعوى حقائقها الخافيةَ ، وبحصر منتجاتها من المنافع والمضار

إن من يقصد إلى الحقيقة والصواب بالتواضع ، ومن طريق البحثِ والتجاريب ، يندر أن يحيد عن هذا المنهج ، ولا يكفّ عن التقدم فى سبيله وعن الاهتداء إلى نشدته بكل البواعث على الهداية ، حتى بواسطة خصومه . ولكنّ من لا يحترم مبادئ الغير سواء أكانت دينية أم غير دينية ، ذلك الذى قيمته عدم فى اعتبار الحقيقة ، فاقدٌ كل شىء ، يريد أن ينال كل ما هو مجرد منهُ من النفوذ ، والشرف ، والشهرة ، والفضل ، بالتحزّب إلى فريق مخصوص أو بالتعصب لمبدإٍ شاذ . والصلابة التى تبدو مع العناد وبفضل روح التعصب ، يظنونها دلالة على الثبات ، وما هي فى الحقيقة إلاّ شبه يبوسة الميت بعد مفارقة الحياة جسده الترابي

فالطمع وحبّ الذات هما اللذان خلقا هذه الروح الخبيثة ، وكانا السبب الأوّل فى شنهـا الغارة فى هذا العصر ، على السياسة وعلى الدين ، وحتى على العلم . وهي باعث على انتشار الكذب والرياء والنفاق ، وسائر وسائل الخداع والتغرير . وهي التى تدفع المتعصب

باسم الدين، وهو بريء منهُ، إلي خلق الريبة والشكوك فى الأعمال النافعة والأفكار الراقية، حين لا تتلاءم كلهـا مع غاياته ومصالحه الخاصة. وهي بعينها تدفع المادي إلى مناهضة الدين، وإلى وصمه بأقبح وأشنع الوصمات، متى كانت تعاليمـه ومبادئه تعارض ميول ذلك المارق الملحد. وهذه الروح هي التي تلصق زوراً، تهمَ التمرُّد والعصيان والثورة، بمن يكون إلى صفّ حكومة تبدّلت، أو من أنصار ملك سقط عن عرش الحكم، وانتزعت منهُ السلطة ومن أصحابه النفوذ

فما أعظم ما تحدثهُ هـذه الروح الخبيثة من الإضرار بالناس، وبالمصالح المادية، إذا فشت فى مجموع منهم! وما أقوى ما تؤثر فى الأخلاق! فإنها تلاشى كثيراً من الصفات المليحة، كالطيبة، والوداعة، والحنوّ، وحب السلام، وتعوّض منها الخبث، والغلظة، والقسوة، وحب الضوضاء والمنازعات

إن الأضرار بالغة وجمة، تتبع هذه الروح أينما سكنت، وتنتج منهـا حيثما استوطنت، سواء أفى نفس الشيخ الطاحن وهو فى ضعف الشيخوخة، أم فى نفس الشاب الفتى وهو فى نزق الصبا وجنون الشباب. روح خبيثة، أهون ما تحدثه من التلف تنغيص عيش الجماعة، وتشويه حال الحياة، وزعزعة أركان الأمن والسلام

أكثر ضرراً من هذه الروح وبجودها فى الناشئ . فإنّ من تملأ نفسه من الشباب يكون شؤماً على ذاته، وطامة على الناس . وولعه بهذه الروح، ونزوعه إلى الانضمام لصفوف الأحزاب والعصابات، يجردانه من كل دلائل الإنسانية ليكون حليته ما ذكر من نتائج تلك النزعة الجنونية

من بين مربّي أو مدرّبي الحيوانات والطيور من تبلغ بهم القسوة إلى حدّ التوحش . فمنهم من يفقأ عمداً عيني طائر وديع ، كالبلبل مثلاً ، ليرتفع صوته من الشجى والحزن ، فيطيب غناؤه ، ويرتفع ثمنهُ . ومنهم من يقطع أُذني الكلب ، ليكون منظره بالتشويه كثير الدلالة على القسوة

فهلاَّ يكون ذلك الرجل الوحش وهو يفقأ عيني الطير ، شبيهاً بالإنسان الذى يغرر بالشبان والصبيان وينفث فيهم من سموم روح التحزُّب ما يوردهم موارد العطب ؟

إن هذا التيار الجارف لتزداد قوته ، ويتضاعف تأثيره ، كلما شحذت الأفكار للبحث اعتباطاً عن مواطن الضعف فى أحوال الاجتماع والسياسة ، وكلما نزعت العقول الطائشة إلى طلب الإصلاح بدون الحكمة ، وبواسطة العنف والمهاترة . وما للشباب من التهيب

والجهل والنزق يجعله فريسة هذه الروح الخبيثة وهدفاً لنشابها الضارّة . فويلٌ لمن لا يحذر شراك المهاوين ويقع في المحذور ، فإنه لا ينجو أبداً ويبقى ما عاش في ربقة الجنون ونزعاته ، يتألم ، وينغص عيش غيره من الناس

ما هو حظ الإصلاح والنظام من ذلك الفريق الطائش ، والرعونة والجهـل يضعانه من المخاطر مكان الفراشة من النار ؟ وما هو نصيب حكم الشاب من الصواب ، ما دام مع جهله طبائعَ الناس ، وعدم اختباره أحوال الحيـاة ، يتطفل على فحص عويص المسائل الاجتماعية ، وعلى الحكم والتقرير ؟

الشاب ، وهو على هذه الحال من الغرور ، ليس يصلح للتربية ، ولا يستفيد شيئاً من العلم حتى إذا تعلّم . وما هو بمتجاوز طور الطفولة مهما تعدّدت حلقات عمره ، ولا بناجع إلى الرجولة والعقل ، ما دام حظه من الحياة غروراً يصمى أُذنه عن استماع النصيحة ، وشراسةً تحجّر قلبه فلا يشفق على نفسه التالفة ، وجهلا يعميه عن رؤية ما يتدهور إليـهِ من السفه ، وحمقاً يؤدي بهِ إلى السقوط والعطب

إن انتشار الداء الخبيث يرغم الناس على المحاذرة منـهُ ، وعلى الحيطة لأنفسهم من شرّه ، وعلى التضافر لمنع جراثيمه الفتاكة من

الانتشار والأذى . ولما كانت روح التحزُّب بلغت فى هذا الزمن حدًّا عمّ معهُ الضرر، وزادت عنده أسباب الخصام والفتن، وأثر حتى فى الأخلاق وفى الثروات، فلا بدَّ من أن تكون فيما وضح من أعراض تلك الروح الخبيثة، ومن نتائجها الضارّة، عبرٌ للناشئين . تنهض بهم إلى الفرار منها والحذر من أنصارها ، فإنما السلامة من الضرر تكون بالابتعاد عن مواطن الخطر

البحث السابع

الحياة الراهنة وأسباب السرور

مرّ على الإنسان حين من الدهر كان يقصر عنايته فيه على جسمه ، ويعيش كأ نهُ بلا عقل ، ومرّت عليهِ أزمان أخرى كانت فيها هذه العناية بالعقل وحده . أما الآن فهو يعيش كأ نهُ بدون الاثنين معاً

فالعلم بجريه على منهج (مذهب المحققين) جفّفَ ينابيع كثيرة كانت تتغذّى منها النفس وتقوى بها . والإنسان ، من جهة أخرى يهمل ترويض الجسم وتقويته ، وعنايته منصرفة إلى تحصيل العلم وحده ، على ذلك النمط العقيم ، ولا زال يضحى فى سبيله كل شيء ، حتى الغاية من الحياة

والحياة على هذا المنوال تؤذى الإحساس ، وتهيج العصب ، وتضعف الهمة ، وتفقر الدم . والغذاء الذي يساعد على حفظ الحياة يساعد فى هذه الحال على مضاعفة النتائج المذكورة ، ولا يستطيع وحده منعها . فهل من ينكر تأثير اللحم والمشروبات القوية فى ما ذكر من الأحوال ؟

من القضايا العكسية الغريبة أنّ ما وصل إليه الإنسان ، بالفوز على الطبيعة وامتلاكه عنان بعض قواها ، وباكتشافه كثيراً من أسرارها ، وبغزارة ما حصله من العلوم ، كل هذا لم يدنهِ من الطبيعة ذاتها ، وإنما أبعده عن المعيشة البسيطة والحال الفطرية. وها هو آخذ بأسباب حياة يسميها (الحضارة والتمدن) ، وما هي إلاّ الخروج عن حدود الفطرة إلى مظاهر التكلف والتصنع . وما ظهر بفضل العلم والاختراع ، يسوق إلى هذه الحياة ودواعيها ، فيحبس الإنسان فى المدن (العامرة) ويقصيه عن الخلاء حيث الهواء النقي ، والشمس الصاحية ، والحقول الخضراء . وما المدن ، فى الحقيقة ، إلاّ سجون كبيرة تحتوى الناس ، وتؤثر فى الزكاء وفى الهمة فتضعفها

إن الناشئ، طالب الدرس والعلم ، لا يجد هذين فى غير المدن ، وسط المعيشة المزعجة والأحوال المضرة بالصحة والأخلاق ، هنالك حيث يجد البلاط يخفي الأرض الطبيعية عن عينيه ، والأبنية

تحجب عنهما الأفق ، وحيث المداخن بما يتصاعد منها من الدخان تعكر فى نظره منظر السماء ومشاهدها البديعة

فمحال عدم تأثر الصحة البدنية بهذه الأحوال ونتائجها الضارة، وما إحصائيات موت الأطفال وحدها ، ومقارنتها بمثلها فى غير المدن ، تكفي للدلالة على ما فى سكنى الأماكن المزدحمة من الخطر على الناشئ ، منذ تعرفه وجه الحياة ، ومنذ خطوته الأولى فى سبيل غايتها

كل ما فى المدنية مضرّ بصحة الشاب من السرور إلى الدرس ، وكله يدعو إلى الإفراط والتفريط . وما يلاقيه من الإعياء بسبب العمل والاجتهاد ، ومن التلهى بما أعدّ من أنواع الملاهى ، يؤثر فى صحته مهما حسنت ، ومهما قويت عضلات جسمه . فالبقاء الطويل فى الغرفة ، والسهر ، والهواء الفاسد ، لا بدّ من إنتاجها فى جسم الشاب ما لم يكن ينتظره ، وما تسيئه إصابته به

وأهمّ ما يدعو إلى الأسف ، بسبب نتائجه المؤثرة فى العقل وفى الجهاز العصبي ، إغفال الرياضة البدنيـة التي تعوّض مما يفقده الإنسان بسبب الأعمال العقلية ، وبسبب ما يحيط به من البواعث على تلف الصحة . هذه جناية الناس على العافية ، ولكنّ الناشئ هو الذى تؤثر فيه نتائجها ، وهو الذى يتألم مما لم يجن ولم يعمل ،

وهو الذى تظهر فيه نتائج تلك المعيشة القاسية ، من الأمراض العصبية وما شاكلها

لقد أدرك الناس هذا الخطر من وقت قريب ، فارتفعت الأصوات عالية من كل صوب ترشد إلى مواطنه وإلى أسبابه ، وربما كانت الآذان تتهيأ الآن لسماع ذلك الصراخ . ولكن من المتعذّر سرعة النهوض والخلاص من تلك الهوات ، كما أنهُ من الصعب إفلات الإنسان من قيود العادات والأذواق ، ومما تحدّى النهج عليه مع الناس زماناً ليس بالقصير

إن وضوح الضرر يفقأ العيون ، ويؤلم النفوس ، والدواء معروف ، ولكن المتعذّر فى المداواة تعاطى الإنسان إياه ، وإحتماله غضاضته الوقتية . فالعالم يبقى يتأوه من الحسرة ، والشباب يتألمون من تلك المعيشة المزعجة ومن نتائج أحوالها الضارة ، ريثما تكره العلة الناس على طلب الدواء رغبة فى البرء والشفاء

هذه الحال تبعث الصدور على الانقباض ، والنفوس على عيف الحياة ، حتى لقد صار من المألوف أن نرى بين الفتيان من يستهين بالحياة ولا يستطيب العيش ، مع كونه لا يتألم من مرض ، ولا يعرف فى الموت لذة . ولست أعنى بهذا الإنسان من استنفد قوته فى اللهو الفاسد وزهرة عمره فى حمأة السرور الكاذب ، ولا أقصد به من

أسقمت فكره الفلسفة العقيمة فنظر إلى الحياة بعيون كليلة ، وإنما من يسأم الحياة مع كونه من ذوى الإحساس الرقيق والشعور الصادق ، والضمير الحيّ

فوصول الشاب إلى هذا الحدّ من الانقباض والعياف ، يقتل فى نفسه أسباب الابتهاج ، ويفضي بهِ إلى مرض السوداء . وما ينجع اليهِ من أسباب اللهو والسرور ، فراراً من ضيق الصدر ، يزيد تهييج الأعصاب بدلاً من تلطيفها ، فكأنما يراد من السرور التهييج والتشنج . والفرح الذي يشعر بهِ بهذه الأسباب كاذب ، ضعيف التأثير فى النفس ، إذا هو لم يؤثر فيها تأثيراً سيئاً

إن أفضل هذه الأنواع شهود التمثيل ، ولكنّ ما استعضنا بهِ من بواعث المسرّات الحقيقية ، لا يعوّضنا من لذة النظر إلى السماء ومناجاة الروح والكواكب والنجوم ، إلاّ التحسّر مما يلحظ الإنسان وجوده خلف الستار من حياة الممثلين والممثلات ، اؤلئك الذين نراهم على المسرح فى آداب الملوك ، وفى أخلاق ذوى الفضل

إن الروح لتبتهج فى بعض الأحيان وتسرّ بقليل من أسباب الفرح ، التي تحسّها ولا تبوح بها للغير ، ولا يحول دون الشعور بها سائر ما فى المدن من الحوائل . ولكن هذا النوع من الإبتهاج غير عام ، فما يناله كل راغب فيه ، ولا تشعر به كل نفس ، فما هو بالسرور

الشامل الذى تحتاج إليه الصدور المنقبضة ، والذى يزيل الأشجان وينعش النفوس والأبدان . فهل الإنسان بمدنيته الحاضرة أزهق روح السرور، أم هو لا يدرى كيف يلهو ويسرّ؟

لقد آن أن يعني الإنسان بهذه الأمور ذات الشأن ، لأن أسباب الصحة والسرور مما لا تمكن الحياة بدونهما ، والمرء فى حاجة ماسة إليهما كحاجته إلى كل أسباب الحياة الراقية ، من العلم النافع ، والأخلاق الفاضلة ، والصناعة المفيدة

حرامٌ أن تتألم نفوس الشباب فى زمن قوّتها ونشاطها ، وحرام أن تحوّط فى الحياة بكل هـذه الأحوال الضارة ، المؤذية الجسم ، المخدّرة القوّة ، المؤدية إلى الضعف فالمرض ، وإلى فقدان حاسة الابتهاج

وحرام أن نرى هـذه المخاطر ، ونشاهد تأثيرها السيء فى الناشئين ، بدون أن نتألم ، وبدون أن تدفعنا الشفقة إلى إزالتها وتحرير أبنائنا من قيودها الضيقة وأنيارها الثقيلة . فالثكل لمن يستطيع إصلاحاً ولا يفعل ، وفائدة ويمنعها عن تلك النفوس الشابة

البحث الثامن

فريق العامة

ما حياة هذا الفريق من العامة ، إلاّ من نوع المليح المجهول ، وما يظهر منهُ واضح الحسن قليلٌ إلى جانب ما خفي ولم يلحظ . فهذه الحياة حقيقة ببحثها ، وباجتلاء ما فيها من المزايا المستورة ، ومن الأدواء الدوية وهذا البحث لا بدّ منهُ ، لأن نتائج هذه الأحوال تؤثر فى فريق الناشئين فى تلك البيئة تأثيراً محساً ، يطبعهم على مثال ما يحدث أمامهم وما يألفون

الناشئ من هذا الفريق يختلف حظه عن حظوظ أبناء الخاصة لأنه لا ينعم بما لهم من راحة البال ، والفراغ ولا بما ملكوا من المال الذى يفتح فى وجوههم دور العلم والتربية الراقية ، ولأن افتقاره إلى كسب القوت الكفاف ، وما يحتاج إليهِ العمل من الوقت والتعب ، كل تلك الأحوال تلهيه عما عداها من الشئون . فلا يتاح له تربية فكره بالتعلّم ولا مداركه بالبحث والاستقراء ، وليس أمامه من وجوه التعلّم والعمل إلاّ أحد ثلاثة الصناعة والتوظف والفلاحة ، وإلا الاستفادة من التجاريب ، والاقتداء بمن ميزتهم عنهُ مراتب

الاجتماع ، وإلاّ باستيعاب ما تنشره الصحف من الآراء والمبادئ ، سواء أكانت ضارة أم نافعة

من هؤلاء الناشئين مَن يتم التعليم الإبتدائي ، فيبقى محتفظاً على ما تعلّم ، لثبوت تأثير ما يلقنهُ الصبي فى صغره ولدوام هذا التأثير ، وهذا أقوى فعلاً فى فريق العامة منهُ فى غيرهم من فئات المتعلمين ، لأن كثرة تعلّم أبناء الطبقات الأخرى، وكثرة المطالعة والاطلاع ، تبدّل ما رسخ فى ذهن الناشئ منهم مع اتساع المدارك وكثرة التحصيل ومرور الزمن

ومقتضيات الحياة ودواعيها ترغم أبناء العامة على التبصر منذ الصغر لأن دخول الفرد منهم معترك الحياة صبياً ، وقضاءه زمن الصبا والشباب فى المصانع ، أو فى مكاتب العمل ، أو فى الحقول ، يحملان على مخالطته الناس ، فيكون أحد تلك الأماكن مدرسته ومن يخالطهم فيها معلميه

وهذه الأماكن الثلاث لا يشابه حظ من يعمل فى أحدها حظّ غيره فى المكان الآخر. فمن يختار تعلّم الصناعة ، يشقى كثيراً لأوّل عهده بالتعلّم ، حتى ليكاد التعب يقعده عن المداومة على العمل ، أضعف إلى هذا كونه يخالط عدداً عظيماً من الرجال والآلات الضخمة ، فلا يلبث أن يرى نفسه حقيراً إلى جانب تلك القوى :

يد الصناعة وموارد الربح والإثراء

في ذلك المكان الواسع ، الذى يستدعى كثرة التنبه وحذر أسباب الضرر ، وحيث تحصر قوة الشاب وعقله فى حركة الآلة الميكانيكية ، هناك ينسرح المخلوق من نوعه الإنساني ليكون آلة بين الآلات الفولاذية ، بل أنه ليرى نفسه دون تلك الآلة الثمينة المعتنى بها . وبالحقيقة ما هي قيمة عمل الإنسان والفائدة التي تعود على صاحب العمل منهُ إلى جانب تلك التى تطم النار وتدر الذهب ؟ ومخالطة الصبي من العمال الرجال الحديث العهد بالحياة وتجاريبها ، وما يسمعه من هؤلاء من الألفاظ والعبارات البذيئة ، يفسد أخلاقه ويعوّده السفه ، ويغريه بالفضول ، ويترك مقتضيات الأدب

***

أما العامل فى المصارف والمكاتب فإن حظه أقل تعساً من حظ رفيقه الصانع ، وعمله ألطف من ذلك عناء . فالموظف فى تلك الدور يشغل مركزاً وسطاً بين الفكر والعمل الذى يبرز الأوّل إلى حيز الوجود المادي ، وبين رأس المال ويد الصناعة ، ثم بين أصحاب المال والعمل ، ذوى السلطة والسيادة ، وبين المستعبدين من طبقات الفقراء العاملين

والذى يشغل هذا المركز المحتك بصنوف الناس ، يلصق به

كثير من عيوبهم المتنوعة وصفاتهم الحميدة . ومن مضار هذه المهنة الاحتباس فى الغرف ، والمثابرة على جزء من نوع واحد من العمل ، الذى تتوزع بقية أجزائه الأخرى على متحسين آخرين . وليس أدنى شبها إلى ذلك العامل ونصيبه من العمل إلا الثور تحت النير يدير الساقية ، ويروى الأرض ، لينتفع غيره بما فيها من الزرع والثمار

***

عند النظر إلى ما ذكر من الحالين ، ومقارنتهما بحال القروي يفلح الأرض ويعمل فى الحقل ، نرى هذه تفضلها وتدعو إلى الارتياح منها

العمل فى الحقل يتغير نوعه مع تبدّل فصول العام ، والطبيعة بمشاهدها المتنوعة وبنسقها البديع ، تلهى العامل وتنعش نفسه ، وتربى فكره ومداركه . وبينما يكون الصانع فى عمله يصير شبيهاً بالآلة ، نجد الزارع يشارك الطبيعة فى العمل ، بدون أن يخضع لسلطة متعنتة ، وبدون أن تضيع كرامته الذاتية إلى جانب عمله ، أو إلى جانب الآلة التى تساعده على العمل

وهذا الإنسان وإن كان واقعاً فى قيد الشراك الاقتصادية ، كغيره من الناس ، إلا أنه لا يحبس نظره على الدوام فى لوحة الأرقام التي لا تفرق بين العامل والآلة . فعمله ، وحقله ، وكل ما

حواليه ، يحفظ له كرامته الشخصية ، ومقامه فى صفوف الكائنات الحيّة

هذا الإنسان هو وحده المتمتع بما حرم منه العامل والموظف ، ولولا ما تولاّه من الشغف بالمدن ، وبما فيها من زخارف الحياة الملفقة ، ولولا تأثير هـذه المظاهر فى نفسه وفى أحوال حياته ، لحقّ على الناس حسدهم إياه على ما ينعم بهِ من الهناء والسعادة : أمّا وتلك المغريات المتلفة تجذبه إليها ، وتهيء له مهاوي الدمار والتلف ، فمن الهين القريب رغبته عن محبة الأرض ، وعن الفلاحة ، ذلك الكنز الثمين مصدر القوّة ، والنشاط ، والأخلاق الحميدة

***

إن الوصول إلى هذا الحدّ ، من تمثل حال فئات العامة ، يستدعى التنويه إلى ما يلحظ على الشبيبة فى هذه الطبقة ، من الأعراض الدالة على أحوالهم الفكرية والأخلاقية ، وعلى صورة الحياة كما هي فى أنظارهم

طائفة العامة من حيث ينظر إليها الباحث يرى أهلها ينحون على مذهب المحققين ، بعد انهدام عماد المبادئ الدينية والأخلاقية التى لبثت قروناً كثيرة أساس الحياة الاجتماعية . ولكن لا زال القليل منهم يؤمن بالله ، وبوجود الروح ، وبالبعث ، وينتصر لمبدأ

الحرية الشخصية مع المسئولية ، لا زال القليل يؤمنون بهذه المبادئ إيماناً ضعيفاً لا يعتدّ بهِ ، ولا يصح اعتباره عقيدة راسخة

والعلم مع زيادة مواده المغذية العقول والأفهام ، كان انتشاره باعثاً على صرف الناس إلى الماديات ، وعلى حصر الرغبات فيها ، ومنع الركون إلاَّ إلى ما يلمس ، والاعتقاد إلاَّ بما يحسّ ويدرك

إن الناشئ ، على وجه العموم ، وهو بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين من سني حياتهِ ، يلحظ عليهِ تعدُّد الميول الفاسدة ، وقلة الطموح إلى الكمالات . وكأن الرغبة عن الفضيلة ، وحبّ الانطلاق من كل قيودها ، يعلمان الفلسفة العقيمة ، فإن ما يدافع بهِ الزائغ منهم عن حاله الأخلاقية ، يقارب ما عرفناه وما تداول بين الناس من أفكار الفلاسفة الملحدين

وأنَّى للناشئين أن يكون الهدى من نصيبهم ؟ أليس لهم قدوة بذوى الميزة والرؤس فى عشائرهم ، فهؤلاء بأعمالهم وبأقوالهم يدفعونهُ إلى الغواية والضلال ، ويناهضون الدين وتعاليمه ، والفضيلة ودواعيها ، وحتى الأدب ومبادئه النافعة

ما الحكمة فى مدح الفضيلة والترغيب فيها بالقول ، وإنما فى ممارستها حتى يكون الإنسان مثالاً يقتدى بهِ ، ورمزاً حياً يدل على سموّ ما يمارس من الأخلاق الفاضلة ، وما ينهج عليهِ من المبادئ السامية

ها كل الأحوال الحادثة تدلّ على وجود أؤلئك الرؤس الممتازين، فى كل الشعوب والطوائف، على الرغم من إنكار وجودهم ومن ادعاء وجود المساواة بين كل أنواع وطباق الناس. أؤلئك النفر سواء أكانوا من الأغنياء أو الأمراء أم من فريق العلماء والأدباء، هم قدوة غيرهم من أهل الطبقات الأخرى. فالأنظار تحصى حركاتهم، والأفكار تقارن بين مظاهرهم وأعمالهم، والنفوس تفزّ إلى مجاراتهم والاتصاف بصفاتهم

فلهذا السبب يمكن للباحث أن يتناول القليل الظاهر فى كل طائفة فيكون المجموع هو صفات ذلك الفريق من الناس. ولكن على الرغم من صدق هذا القول، ومن فشو الأخلاق الرديئة فى كل طبقات الاجتماع، لا زال فريق الشباب فى طائفة العامة، أقل من غيره تأثراً بهذه الأحوال المتلفة، ولا زالت الإنسانية تظهر كثيراً من الأدلة على وجودها بينهم. والغالب على الظن أن الافتقار إلى حاجات العيش، والتماثل فى الشقاء، والتألم من الهموم الجمة، هذه كلها هي التى تبقى على تلك الروح الشريفة، وتبدى للعالم من أمثلة التضامن والاخاء ما يعدّ وجوده غريباً فى هذا الزمن

ولكن العيوب الدوية التى إلى جانب هذه كثيرة، تكاد مضارها تخفى كل وجوه الحسن المذكورة. فما هو مشهور عن هذه

الطائفة من قلة الأدب، والسفاهة، وعدم الاحتشام، وفساد السلوك، ومن احتقار المرأة، يكفى لتمثيل العامة فى أقبح صوَر الحياة الاجتماعية

وإذا أُضيف إلى هـذه العيوب ما هو ثابت من عدم تبادل الاحترام، ومن جحود الأبناء فضل التربية والكفّ عن معاونتهم آباءهم وهم فى ضعف الشيخوخة وعجز الهرم، إذا أضيف هـذا إلى مجموع ما يلحظ على ذلك الفريق، أمكن الإنسان وضعه فى مكانه الصحيح من مراتب الاعتبار

إن قدر الاحترام الذى يحسّه الإنسان، بالنسبة إلى الغير، يتناسب مع فكر الإنسان عن كرامته الشخصية، فكلما تعرّف قدر نفسه واحتفظ على مقامه الأدبي، كلما خضع مختاراً لواجبات اللياقة، وأدى ما يجب عليهِ من الاحترام لمن هم أهله من الأفراد أو ذوى السلطة

أما احتقار المرء ذاته أو جهله كرامة نفسه، فإنهُ يفقده مزية التميز وروح التأدب، ويغريه بعدم احترام الغير وكل جدير بالإجلال. فما فقدانه هذه الروح بالخطب الهين على نظام الاجتماع، لأنها من الأسباب الرئيسية فى اختلاله وفى سيادة الارتباك والفوضى

البعض من الناس يسند فشوّ هذا الضرر إلى الروح العصرية،

بسبب ما دعت إليهِ من المساواة وعدم التميز بين الأفراد ، وما هذا صحيح . لقد انفرد هذا العصر حقيقة بإزالة كل مظاهر العظمة ، وبملاشاة كل المراسيم الشاذة التي بلا فائدة ، وعني بقدر الناس قدرهم الصحيح وبتحديد ما يستحقون من الاحترام والتبجيل ، وإن كانوا من القياصرة ورؤساء الدين . فهؤلاء بسبب الغارة على تقاليدهم المألوفة صاروا يطلبون الظهور بما ينسبونهُ إلى أنفسهم من حب العدل والرفق بالضعفاء ، طمعاً بحمل الناس على إعلاء شأنهم ، وعلى التعلق بهم

اذكر ما كان يكني بهِ الملوك أنفسهم من ألقاب العظمة والسموّ ، وانظر ما يتطلعون إلى التكني بهِ الآن من الكنى مثل خادم العلم — خادم الإنسانية — خادم الأمة — أبو الشعب . اذكر الحال فى الآنين تدرك مقدار تأثير الروح العصرية حتى فى ألقاب ذوى النفوذ والسلطان

فهذه الروح إذا كانت قاصرة على ردّ المتألهين من الناس إلى نوعهم البشري ، وعلى حفظ حقوق الفضلاء من الاحترام ، كانت من الخير العميم

أما والناس لا يحفظون للأشياء حقائقها على الدوام ، ولا يقفون ضمن حدود الواجب ، فإن انتشارها أدى بالفريق العظيم من

الخلق ، بل بالعالم كله ، إلى إلفة روح الاستخفاف والازدراء

إن مقتضيات الروح العصرية تنحصر فى إعطاء كل فرد حقّه من القدر الصحيح ، وواجبه من الاحترام . ولكن رغبة النفوس فى إنكار أفضال الغير عارضت تلك الغاية المقبولة ، وأدت إلى عموم الازدراء وإلى الرغبة فى التحقير والخفض من الكرامات ، فكانت النتيجة عكس المنتظر

وتلك الروح تتسرّب إلى نفوس الشبيبة ، بواسطة اقتدائهم بالغير ، من الممتازين فى البيئة التى ينشأون فيها ، ومن المربين ، وممن يدعون الزعامة أو يرتقون منابر الوعظ ، أو يتصدرون لطلب الإصلاح ، تجيء تلك الروح وما يتبعها من المضار ، من الكتّاب المنتقدين ، الذين اتخذوا هذه المهنة سبباً لكسب الرزق ، اؤلئك الذين يغريهم الدرهم بالطعن على كرماء الناس وحتى الأنبياء ، والذين يغيظهم ظهور الفضلاء بالفضل الصحيح وبالمقدرة ، فيتخذون من الأقلام المبتذلة معاول لهدم تلك المظاهر الصادقة ، ومن نواياهم الخبيثة و بضاعتهم الحقيرة صروحاً من النقد والثلب ، ينسبونها زوراً إلى اؤلئك الكرماء

ليس يضرّ الشعوب والأمم مثل تشويه المبادئ السامية ، ومسخها إلى أخرى تضيع ثمرات الأولى وغاياتها النافعة . ولو لم يكن لهذا

الإفساد من النتائج غير إزالة الثقة بالمعتقدات وإضعاف الإيمان ، وغير مناهضة الفضيلة والاستخفاف بمبادئها السامية ، لكنفى بها نتائج تهدم صروح الحضارة الصحيحة والمدنية الراقية

والجناية على الإنسانية ، وفشو هذه الروح الخبيثة ، وإنتاج هذه النتائج الضارة ، ليست تبعتها قاصرة على فريق واحد بل على الناس جميعاً . ولكن الجزء العظيم من المسئولية راجع إلى الصحافة التى تنهج ذلك النهج المبتذل ، فتكون بدلاً من إرشاد الناس واسطة لإتلاف العقول وإفساد الأخلاق

من طبائع الإنسان الانصراف إلى الشر أكثر منهُ إلى الخير ، والنزوع إلى التخلص من قيود الفضيلة أقوى منهُ إلى الاستكانة لها والارتياح إلى أسبابها . ورب كلمة ضارة أو مثال فاسد ، تقع العين على أحدهما فى كتاب ساقط أو فى صحيفة سفيهة ، فيؤثر فى النفس ويهيج فيها كوامن الشرّ فتنصرف عن جادة الكمال والفضل وتحدى مناهج الرذيلة والسفه . فإنّ من الأذن لمنفذاً للرديء من النصائح ، ومن القلب لمتسعاً لوساوس الشيطان تصل منهُ إلى النفس فتعبث بها عبث الريح الصرصر بالرمل

إن قلّة الاحترام يتبعها عادة فقدان الثقة . والشعوب الآن أكثر ما يكون حذراً من كل شيء ، من الناس ، ومن العقائد ،

وحتى من المربين وعلوم الأخلاق

لقد مرّت أزمان كان فيها كل ما ينشر ويطبع ، سواء أفى صحيفة أو فى كتاب ، ينزل فى نفوس المطالعين منازل الكتب السموية . أما الآن وقد أضعف الغش الثقة بالكتاب وبالمطبوعات، فإن من الصعب وصول الكلمات النافعة إلى الآذان والقلوب . الإفراط فى التضليل قطع الحلقة الرابطة بين المعلمين والذين فى حاجة إلى الانتصاح والتعلّم ، فأصبح الناشئ من فريق العامة منسرحاً من كل قيد يتخبط فى الحياة ، بدون مرشد من تعاليم الدين ، ولا رادع من الحياء ، وبدون زاجر من الأخلاق

ومن نتائج هذه الأحوال الثابتة ضياع لحمة التماسك بين الأفراد وبعضهم وبين الجماعات وأمثالهم ، فى كل الظروف والأحوال حتى ما كان منها معدوداً ضمن المنافع العامة ، التى تحتاج إلى التضامن العام

يقولون إن ما ظهر من الأحوال مثل اجتماع الشباب على بعض المبادئ الاجتماعية ، والتشيع لمذاهب السياسة ، لمن الدلائل على وجود روح التضامن وعلى نفي تلك المقررات . والحال أن بحث هذه الظواهر الخادعة يدل على أن نفراً قليلاً من المغرورين هم الذين يحدثون تلك الضجة ، فيخدعون الناظرين إليها من كتب، ويوهمونهم

غير الحقيقة ، فما الدويّ المزعج إلا للطبول المجوفة

ليس بين الشعوب الناهضة إلا عدد قليل من الأفراد النابهين أولئك هم الذين يستوعبون الحقائق ، ويدركون مقتضيات الحكمة ومبادئ النظام الصحيح ، وشمول النفع بواسطة التربية الأخلاقية والتعليم الاقتصادي . وهذه الفئة القليلة هي التي عليها مدار الحركة النافعة ، والعمل الشاق لخير أمتهم وبلادهم ، وهي التي تتطلع إليها الإنسانية عامة ، تبتغي منها النشاط الى إنقاذ العالم من عيوب الحال الحاضرة

****

إن ما وصل إليه البحث من هذه النتيجة المحزنة ، لا يتفق فى نظر المطالع مع ما بدئ به هذا البحث من امتداح حال الناشئة فى فريق العامة

ولما كان الغرض نشدة إصلاح الفاسد من كل الأحوال ، فإن ذكر عيوب هذا الفريق العظيم من الناس وإظهارها للملأ ، مما يساعد على لفت الأنظار إليها وتنفير الخلق منها ، وعلى نشاط الهمم إلى إصلاح المختل بقدر ما فى الاستطاعة . ولكن الناشئة من العامة لا زالت ، على الرغم مما ذكر من العيوب الشائنة ، تفضل غيرها من طبقات الهيئة الاجتماعية ، لأن أفضل الناس من تعدّ عيوبه وتحصى مثالبه

من البلية أن تصيب هذه الأمراض الاجتماعية فريقاً عظيماً كفريق العامة ، ولكن هذه الطائفة ، مع ما فيهـا من الأدواء الدوية ، لا زالت مصدر النشاط والشجاعة فى العمل والإقدام على الصعب من الأمور ، ولا زالت مصدر المنافع العامة ، التي تضاعف ثمرات الحياة وزينتها ، وتحسن نظام الاجتماع وتجدد قواه ونسقه . وكلما نظر الباحث إلى حياة اؤلئك الناس من قرب ، كلما زاد دهشه بما فيها من الدلائل على الصبر الجميل ، وعلى الثبات مع الحزم والسراوة

ما أجمل المرأة من تلك الفئة ، ضنك العيش يمنعها التغذية ، وكثرة العمل تضنيها وتسقمها ، وهي مع كل ذلك ومع ما تفتقر إليه من القوت والراحة تستقبل الحياة مطمئنة ، ولا تكفّ عن العمل وعن السعي إلى الرزق ! فمن لى بالرجل المترفه ينظر إليها فى الطريق وهي تحمل بين يديها طفلها ، وفوق رأسها حملاً ينوء تحت ثقله الرجل ، من لى بالمترف ينظرها وهي فى هذه الحال مبتسمة نشيطة ، عساه أن يخجل من التخنث ، وأن يكسح من نفسه روح اليأس من النجاح وأسباب الاستياء من الحياة !

ومن لى بعلماء الاجتماع والاقتصاد يشاهدون حال تلك المرأة ، حين تترمل من زوجها أو حين يقعده المرض إلى جانب أطفاله ! هنالك تحار العقول فيما تخلقه تلك الإنسانة الضعيفة من الحيل

لكسب الرزق ، ومن الهمة لاحتمال ما يعترضها من المصاعب ، ولإزالة ما يقوم فى وجهها من العقبات ، رغبة فى نيل كسرة الخبز تدفع بها عن العائلة عادية الجوع

قارن بين هذه المرأة النشيطة العاملة وأولئك النفر من الذين يعتادون البطالة ، ويعيشون للأكل والراحة واللهو ، ثم سائل نفسك عن أيهما الأفضل ، وأيهما الجدير بالاحترام والكرامة . إنّ من الاطلاع على ما فى أحوال العامة من الشذوذ والغرابة لدروساً نافعة للناشئين ، أفضل من علوم الجامعات . فإذا هم تمعنوها وأدركوا ما اشتملت عليه من المواعظ والعبر ، لكان لهم منها عبرة ، ولتعلموا الحكمة والفلسفة من أستاذهم الدهر ومن تجاريب الحياة وأحوالها المتباينة . وعلم الله إن أفضل المعلمين من أفاد ، وأفضل الدروس ما تثمر وتنفع .

البحث التاسع

أين نحن ؟

كل ما ذكر إلى الآن من أحوال الناشئة فى هذا العصر ، يدعو إلى الأسف وإلى الشجن ، ويمثل الحياة الاجتماعية والأفكار فوضى . فإذا لم يكن فى الحياة سوى هذه الأحوال الفاسدة ، ما تحدينا نشر

هذا الكتاب الداعى إلى الأسف والحزن ، إذ لا معنى لتمثيل الدرك الذى ينحدر إليهِ الناس ، ولا لتصوير الانحطاط الأدبي والأخلاقي ، ما دامت الإشارة إلى ذلك لا تمنعهُ ، ولا تصلح الحال . أما وهذه ليست كلّ الغاية ، ولا ما ذكر هو كل ما فى الحياة ، فلا زال أمامنا غير هذه المنغصات كثير من حقائق أحوال الاجتماع ، يشرح ذكرها صدر المستقرى

سئم الإنسان الحياة فى عالم تجرّد من روح الإيمان ، ومن الأمل والحبّ . ولما كان الإفراط فى طرح القيود الفاضلة هو الذى ساق العالم إلى تلك الحال ، فهو كذلك الذى يحدث الآن ردّ الفعل ويبعث النفوس على الاشمئزاز من نتائج ما حدث بفضل النشوذ والتجرّد . فالأحوال الحاضرة لم تعد ترضى إلاّ النادر من الخلق ، والاستياء منها والاعتراف بسوء ما أدّى إليهِ الغرور ، يكرهان العقول على التمعن والتفكير ، وعلى تقدير ما وصلت إليهِ الهيئة الاجتماعية من دركات الانحطاط والفساد

إن قيمة الشجرة تكون ثمينة أو حقيرة ، على قدر جودة أو رداءة ثمرها ، ولماَّ كانت ثمرات ما نجم إليهِ الناس من التطرف من الاستهانة بالفضيلة فاسدة رديئة ، تكون قيمة تلك الأحوال تماثل تماماً ثمراتها ونتائجها . فالحياة الروحية والمادية هبطت دون

مستوى الفضل ، وما هذا إلاّ للانسراح من شرائط الدين ، وإلا للاستخفاف بالزواجر الأخلاقية . ولمّا كان الإصلاح لا يمكن البلوغ إليه بمجرّد الاستياء من الفاسد أو بطلب تحويل العالم إلى غير الأحوال التي أنتجت علل الشكوى ، فإنهُ لا معنى ولا فائدة من اطراح حال والانصراف اعتباطاً إلى أخرى ، قد تكون نتائجها أعظم ضرراً من الأولى

إن الحياة الداعية إلى إصلاح أحوالها التالفة ، لم نقف عند حدّ التقلّب والتضرر ، فلا بدّ من أن تكون التجاريب أرشدت من فيها إلى شيء من التبصُّر والفهم . والإنسانية لم تكن فى حاجة إلى إهلاك كل ما مضى من القرون لتدرك فى هذا الآن فقط حالها من الانحطاط الأدبي . إن عبر التاريخ ، وما فى مرآتهِ من دروس الحياة ، بمحال أن يمرّ بها الناشئون بدون أن تحوّل إليها أنظارهم ، وبدون أن تغري العقول بتميز مكان الحال من الرفعة أو الضعة ، وبدون أن تبعث الرغبة على تمعن الحوادث الواقعة للاقتناع بسوء الحال و بضرورة إصلاحها

فالبعض من ناشئة هذا العصر ، من ذوى المدارك الواسعة والصفات الكاملة ، فحصوا الأحوال واقتنعوا برداءتها وبما فيها من العيوب ، فتوجهت العناية إلى البحث عن واسطة للإصلاح ، تكون

أفضل من المنهج الذى يجرى عليهِ العالم الآن وأقلّ تغريراً منهُ وخدعة . والقليل من أولئك الباحثين أدركوا كون الواسطة المفردة ، لإنقاذ الحال مما هبطت إليهِ ، ما هي إلاّ الرجوع إلى البساطة وإلى آساس الفضيلة ، وإلاّ انتخاب ما فى الحال الحاضرة والسالفة من المناهج الحسنة والجري على منوالها ، ثم كبح النفس عن كل نزوع آخر لا يتفق مع صالح الإنسان ولا مع صفات البشرية . وما هذه أوّل عثرة بالهدى ولا الانصراف إلى سبيله ، ولكنها أدنى إلى الحقيقة من كل ما سبقها إليها ، لأن معالم الحق أكثر وضوحاً بين الأباطيل منها منفردة ، وأكثر سطعاناً فى الظلمات منها فى نور الهدى والاستقامة

ولما كانت النفس ترتاح إلى ما فى الحياة من الأحوال الحسنة ، وتنزعج من الرديئة ، فهي تبحث عن الأولى وتسكن إليها . فما العناية بالوقوف على العيوب ، والانصراف إلى الإصلاح ، والبحث عن وسائله ، إلاّ من مقتضيات ذلك الاهتمام ، والرغبة فى الاطمئنان على المستقبل وفى ركزه على آساس ثابتة قوية . والنظر إلى هذه الوجوه الاجتماعية يفضي بالباحث إلى مسائل التربية والتعليم ، وإلى ما فيهما من المنافع والمضار ، لوجود الرابطة بين كل أحوال الحياة الاجتماعية وهاتين الدعامتين

إن الحكم على أي نوع من الفلسفة، وعلى أي مبدإ من مبادئ الفكر والسلوك، يكفي فيهِ النظر إلى نوع العلاقة بين موضوع الحكم ومبادئ التربية الفاضلة. فلما كان للتربيـة هذا الشأن في رفع أو خفض قيمة الحياة، وفي صلاحها وفسادها، تحق على الناس العناية العظيمة بها.

الإنسان اليوم مثله قبله، وعلى الرغم من كل التغييرات الحادثة في الأحوال الخارجية، لا زال قلبه مفتقراً إلى ما افتقر إليهِ الآدمي البائد من روح الإيمان والأمل والاحترام. لا ريبة في ارتقاء المدارك عن ذي قبل، وفي تغير قوات الأفهام، وفي انطلاق الأفكار من قيود الخرافات القديمة، ولكنّ بين ما طرح من أفكار وأحوال السابقين كثيرًا من الحقائق النافعة، لو لم يهملها الإنسان وتعرّفها، ولو هو احتفظ عليها واستخدمها لنفعه، لفاز بها وما وصل أمره إلى مثل حاله اليوم

الحاجة أُم الاختراع، والجوع أدعى الأمور إلى البحث عما يدفعهُ. فكذلك وصول الأفكار إلى هذا الحدّ من التطرُّف والفساد، أكره الناس على التروّي والتبصُّر، وعلى إدراك الحقائق، وأرغم على النظر إلى حياة السلف، لا للخضوع لما كان فيها من الخرافات، وإنما لاستقصاء ما عمّ بينها من روح الأدب والكمال، وعرفان الحياة

إن الموت يفنى مظاهر الحياة ولكن بعده البعث ، فها هو الماضى بعد قبره يبعث من الخفاء ، لا كما كان عليه فى نظر الناقدين من أبنائه البائدين ، وإنما واضحة عيوبه ، جلية فضائله ، سبرتها عبر الدهر وتجاريب الحياة فأظهرتها ملموسة أضراره ، محسوسة فوائده

فلا عجب اذا تعرّف الناس الصالح منها ، ونجع إليها الساخط على أحوال الحياة الحاضرة . ولا غرابة إذا وجد فيها طلاب الإصلاح ما يرتق الفتق بعد اتساعه ، وما يوقف تيار الفساد بعد اندفاعه ، فإن الحياة السالفة كانت عامرة بالفضائل والحسنات

***

ما يلحظ فى الحياة من أمثال تلك المشاغل ، يكون بدواعى الحال سبباً فى إيجاد فئة راقية من الناشئين . فبينما يكون المجموع كله مشتطاً فى طريقه المنحدرة ، متوغلاً فى سبيل المذاهب المادية يشذّ منه ذلك الفريق ويتطلع إلى آفاق أخرى أرقى من تلك وأفضل ، لأن الحياة على شكلها الحاضر لا تروق ذوى العقول المغذاة والبصائر المبصرة ، ولأن كل ما فيها من الأحوال تضعف الأمل ، وتغرى بالإلحاد بدلاً من الإيمان والهداية

فعلى أنقاض ما اندرس ، وبين آساس ما يدعّم به المستقبل ،

وما تغرى بهِ الميول النفسية ، وما وضح من أنواع الشقاء الاجتماعى ، بين كل تلك الارتباكات والتأثيرات المتلفة ، أمكن الناشئة أن تنظر إلى الموقف بعين الخوف ، وإلى المستقبل بحذر وتبصر . وكل ما تعرّفوه فاشياً فى الحياة من المخازى والجنون والغباوة ، ومن إفراط القوى الغاشمة فى الاعتساف والظلم ، ومن تزاحم المنافع وتصادم الناس بسببها ، كل ذلك بعث فيهم روحاً راقية تنفر من النقائص ، وتطلب الرفعة والمجد من سبله المستقيمة

هذا النزوع يُلحظ فى الناشئة الجديدة ، برغبتها فى تلمس الحقائق الثابتة وعدم الاقتناع بغيرها ، وبانصرافها إلى العلم وعرفانه من دعائم الإنسانية . فالناشئ لم يعد يكتفى بالإيضاح اليسير عن أسرار الحياة والإنسان . وكل ما يرتطم فيه البحث من الأسرار الغامضة ، وكل ما فى الحياة والموت وما بعدهما من الألغاز ، لم يقف عنده الفكر جامداً ، بل دفعت الرغبة فى تعرفه العلمَ إلى اقتحام سبل الاستقراء ، والفحص والتجربة ، وحدت العقل إلى الفهم والاستنتاج

وعجز العلم عن النجاح فى بعض ما توخاه لم يقلل من قدره ، ولا من فضل الإنسان ، فلا زال الأوّل يكره الناس على احترامه وإجلاله ، ولا زال الثانى ينهض بهِ إلى حيث يجتلى نور الهداية

والمعرفة . ولكن من الخطأ الركون إلى قوة الغير وحده ، والانتظار بدون حركة ، أملاً فى نجاح العاملين والانتفاع معهم بثمرات ما يوفّقون إليهِ . إن العالم هبط مسرعاً إلى حضيض الفساد والتلف ، والبعض آخذ بيده الآن إلى الارتقاء ، ولكن صعوبة الارتقاء لا تماثل مع سهولة الانحدار وسرعة الانزلاق . فلا مراء إذن فى خطورة العمل وشقه على الراغبين فى إصلاح الحال ، على الرغم من توقان النفوس إلى تحقيق الغاية ، ومن نشاط الهمم وانصراف العقول والقوى الجسمية إلى تدبر ونشدة المستقيم من السبل

من المحقق أن الاجتماع على العمل يهوّن على الأفراد مشقة القيام بنصيبهم منه . فهل للناس أن يذكروا هذه الحقيقة ، وأن يتكاتفوا عند دفع الضرر الاجتماعي ، وعند رفع ما ترزح الإنسانية تحت نيره الثقيل ؟

***

هنالك روح اجتماعية أخذت تشير إليها الظواهر، دلائل الحياة فيها الآن حركة ضعيفة ، ولكنها موجودة . والأمل عظيم فى تشرّب الناس إياها ، وفى صيرورتها روح الفكر والعمل فى المستقبل ، فبهذه الروح وحدها يمكن حلّ ما تعقّد فى نظر الاجتماع من المشاكل الاجتماعية والمسائل الفلسفية والدينية والعلمية والدولية ،

والمسائل التي باستعصاء حلّها وعدم الاهتداء إليه تكثر ارتباكات الحياة الحاضرة

وما يرى من عناية الناس جميعاً بهذه المسائل ، يدلّ على مقدار تأثير هذه الروح فى العقول كافتهـا ، بعد أن لبث الناس أزماناً طويلة لا يحفل كل منهم إلاَّ بنفسه ، وإلاَّ بمنافعه الخاصة

ومن نتائج وجود هذه الروح ، وتأثيرها النافع فى فريق الناشئين تنبه الأفكار ، والرغبة العامة فى تقوية آصرة التضامن ، وفى الإصلاح . ومنها تقريب المتعلمين من المعلمين وهؤلاء من تلاميذهم ، وأفهام الجميع مماً فى التآخى والاتحاد من التأثير النافع فى قوة الامة ورقيهـا

فمهما كانت الأسباب التي دعت إلى إصلاح الناس أفكارهم ، وإلى قصر عنايتهم على المسائل الاجتماعية ، فإن الرجوع إلى الصواب يغرى بالابتهاج والسرور . نعم إن حكم أبناء هذا العصر على من سبقوهم يكون دائما قاسياً وربما ظلماً ، ولكنّ المدارك عند درس وفهم بعض الأحوال فى حينها وفى ظروفها الخاصة ، تختلف عنها عند النظر إلى تلك الأمور بعد انقضائها وفوات أوقات حدوثها ، فلهذا السبب يختلف دائماً الحكم فى تصرفات الغير ، ويكون الشباب قساة فى أحكامهم ، ظالمين سلفاءهم . وليس يبعد أن يجيء صبيان

الأجيال القابلة ، فينظرون إلى أعمال وآراء ساسة هذا العصر بالعين التى ننظر بها نحن إلى الأغبياء

إن كل يوم ينقضى من أيام الحياة يضيف إلى مجموعة التجاريب أخرى ، يستفيد منها الإنسان ويضاعف بهـا قوته الفكرية . وما الاختبار إلا نتيجة التجاريب الكثيرة ، ودرس الأحوال المتباينة فى كل أدوار الحياة . لهذا يعجبنى من الناشئ الآن عرفانه هذه الحقائق وقدرها ، واعتباره الممارسة واسطةً لتقوية العقل بالمادة ، والعلم بالاختبار

وهذا التحدّى وحده يدل على زوال سلطان القوات المؤثرة فى عقول السالفين ، تلك التى منعتهم التطلعَ إلى آفاق الحقيقة الصادقة والقصدَ إلى إصلاح ما نعيبه من أحوالهم . وهذه الحركة لم تحدث عفواً ، ولا بسبب انقراض نفر من الناس وظهور غيرهم ، ولو لم يكن من نتائجها إلا الرجوع إلى الإيمان ، وإلى احترام الإنسان نوعه وذاته ، وإلاَّ حب العدل والإنسانيـة ، لكفى بها منافع فى الحيـاة الاجتماعية ، وحسنات للروح العصرية

***

فعلى الرغم من كثرة الغيوم السوداء التي تظلم آفاق الحياة ، وعلى الرغم من الشقاء الذى يتألم منه الإنسان ، ومن كثرة الخطأ الذى لا زالت نتائجه تؤذى الإنسانية ، على الرغم من هذه المساوئ

المحزنة نجد باعثاً على الاطمئنان على المستقبل ، ومسوّغا للتفاؤل بالخير فيها روح جديدة طيبة تسرّبت إلى نفوس الناشئين وعقولهم ، ربما تكون سبباً فى إصلاح حال العالم وردّه عن موارد الغرور ومزالق السقوط الأدبي والاجتماعي

إن الإنسان وقد أخذ ينظر إلى هذه المخازى ويتعرّفها فى حياته ، يرى نفسه كالمستيقظ من النوم إثر رؤى مزعجة ، أو كالخارج من الظلمة الشديدة إلى ضياء قوي السطعان ، فلا يبصر المرئيات مع كثرة الضوء إلاّ كالخيالات ، فإذا ما اعتادت العين الضياء أمكنها صدق النظر والتميز . هكذا الإنسان فى الحياة ألف أحوالها الفاسده وما فيها من العيوب والمضار ، حتى مات فى نفسه الأمل بالإصلاح ، فهو عند تركه هذه الحال والتخلص منها تبهره الحيـاة الجديدة وروحها العصرية ، فيكون حاله كحال العين عند انتقالها فجأة من الظلمة إلى النور

وما نكنّيه الآن بالحال الحسنة هو الخيط الأبيض فى أفق الفجر ، ولكنه مع هذه الضآلة أحيي فى النفوس الأمل . ولما كانت الحياة لم يفن عمرها ، فإن للإنسان مجالا ووقتاً يكفيان لتحقيق أمله ولحبه الحيـاة . وأفضل مشكاة تنير له طريق هذه الغاية ، وتهديه إلى نيلها ، هي الركون إلى الحكمة ، والتزود بالدين وبالفضيلة

الباب الثالث

البحث الاول

ما الحياة؟

الحياة كما يقول الشعراء، حلم، يكون تارة لطيفاً مبهجاً، وطوراً مخيفاً مزعجاً، إلاّ أن كلتا الحالين متبدلة غير ثابتة. وكما يدعى البعض، هي حمل ثقيل ينوء منهُ الغارب، أو معركة قائمة بين الناس وبعضهم بسبب أو لغير سبب

والعلم المادي يقدرها على نحوٍ ما، والفلاسفة يبحثون عن علتها فيما وراء المنظور، ورجال الدين يفهمونها على مثال ما انطبع على أفكارهم من تعاليم الدين الخاصة بها. والنتيجة من كل هذه التصويرات أن الحياة بقيت لغزاً لم يعرف كنهه أيُّ مخلوق، ولم يتوصل العلم أو الفلسفة إلى شيء من أسرارها، والمحقق أنها ستبقى مجهولة إلى ما شاء الله

جاء فى التوراة «فى البدء خلق الله السموات والأرض». ولكن هذا الكتاب لم يتعرّض لذكر أسباب هذا العمل، ولم يوضح النسق

الذى جرى عليهِ هذا الخلاَّق العظيم فى خلقهِ الكون . ومع جهل الإنسان فى كل الأزمان هذه الحقائق الهامة ، عاش وتمتع بالحياة ، وسوف يعيش أيضاً ممتعاً بها إلى أن يريد الله غير ذلك . فمن الحكمة عدمُ التطلع إلى عرفان ما لا يصل إلى إدراكـ العقل البشري ، وقصرُ البحث فى الحياة من جهة ارتباطها بالإنسانية لا أكثر

والحياة ، مع هذا الاعتبار ، حدث سبق الفكر وهو فوق تصوُّر العقل ، ينعم بهِ الإنسان قبل أن يدركـ وقبل أن يبحث ويحقق ، وليس فى متناول يده أن يؤثر فى بقائها أو فى عدمها . وكل ما فى وسعه إنما هو إدراكـ قيمة الوجود ، وقصر همه على الانتفاع بهِ ونيل الغاية منهُ

وحياة الفرد مع كونها منحة إلهية ، تكاد تكون ثمرة حياة الكون ونتيجة ما فيهِ من القوى المجهولة العاملة . فبينما يحيي الإنسان بقوَّة لا يدركها ولا هي فى طوعه ، اذا بهِ يستأثر بنتائج ما لم يشتركـ فيهِ من العمل ، فيتقوَّى بها على استمرار الحياة ، وإلاَّ فالحياة بدونها غير ممكنة

هذا هو حظّ الناس جميعاً ونصيبهُم من الحياة ، فكلهم مسوقون فى هذا السبيل فى قيد نظام الكون العام ، وفق ما تهيأت بهِ وله الحوادث ورمت إليهِ من الغايات . والإنسان يشعر بقدرته على

الانسراح من هذا الرضوخ إلى حدٍّ ما ، وبانقياده الاختياري إلى دواعيه ، فإن له نوعاً من الاختيار المحدود يجعل معنى للحرية الشخصية وللمسئولية

والرغبة فى عرفان قيمة الحياة تقتضى معرفة ما هو دون الإنسان ، لأن درس ماهية الحياة واختبار أحوالها لهذا الغرض ، قد يحملان على الخلط بين حقيقتها و بين ما تعرّفه الباحث من أحوالها الحادثة ، وعلى عدم الاهتداء إلاّ لما ينظره ولما يتوهم كونه يراه ويدركه

فلكي يتعرّف الإنسان الحياة ، وقوّتها ، واطراد حركتها ، ودوام نظامها ، يتحتم عليهِ تمعّن كل ذلك فى المخلوقات البسيطة ، ثم وضع قياس منطقي لاستنتاج ما يريد مما عرف وخبر ، أو مما لحظ وحسّ ، ومما خمن وافترض . وما النهوض إلى هذه الوسائل للرغبة فى الفلسفة ، وإنما لكون الأسباب التي يعرفها الإنسان ، ويدعم بها القياس ليكون صالحاً للاستنتاج منهُ ، لا تكون أبداً كافية لصحة الإنتاج . وليس العجز عن جميع هذه الأسباب ، وعن عرفان الحياة ، لضعف الإنسان وقصوره ، وإنما لِمَا للحياة من الأسباب والماهية التي لا يدركها العقل البشري كشأنه فى كثير من أسرار الطبيعة . فلا بدَّ أن يكون حال الإنسان عند نظره الحياة كحال الطفل والرجل العامي ، يؤكدان كونها معجزة سموية

ليس الطفل أو الرجل من العامة، هو الذى شبه الحياة بالرؤيا، لأن كل الدلائل عليهـا فى نظرهما محسوسة حادثة، وما حوادث الأحلام كذلك. فلماذا لا يكون الإنسان الحكيم فى بساطة الطفل فينظر الحياة على حالهـا المدهشة، ويعتبرها حقيقة هامة لم توجد اعتباطاً، ولا بسبب مادي، وإنما وجدت ككثير من بدائع الخلق بقدرة الخالق، أوجدها لحكمة، ووهبها الآدمي ليحيي. فهل للإنسان أن يذكر بدلاً من أن يغوى؟

البحث الثاني

الكمال

حب الإنسان الحياة غريزيّ فى نفسه، ولكن الإفراط فيه يخرج به عن حدّ الحمد عليه. والدعوة إلى عرفان قدر الحياة وحبّها، ليس الغرض منها الحب السفيه ولا ما يتبعه من الجبن، والإثرة، وإنما حب ما فى الحياة من أسباب التكمل والكمال

فليس أفضل من الحيوان، من لا يغريه بحب الحياة إلاَّ ما فيها من الطعام والشراب، والنوم، واللذة. وجبانٌ من يخاف الألم ويحاذر الإقدام على المحامد خشية منه، ومن يقدم عليها مرغماً على عمله بدواعى الخوف. وحبّ الحياة على هذا المثال لا يدل على عرفان

قيمتها ، وإنما على التعلق بما فيها من الأعراض والأحوال

بين الناس كثيرون من هذا الفريق ، ولكنّ بينهم أيضاً نفراً غير قليل يحبّون الحياة ، لكونها الواسطة إلى كثير من المحامد والفضائل ، فكأنما يحبون ما يمكن عمله من الخير ونيله من الكمال

فإذا وجد بين الخلق من يضحّي حياته لتحقيق غرض شريف أو لأية غاية اجتماعية حميدة ، فليس هذا لكونه يستهين بالحياة ويودّ التخلص من البقاء ، وإنما لكون نفسه الكبيرة تحب الحياة حباً يسمو عن حبّ الحيوان والغبي إياها . والإنسان بشغفه بها على صورة سافلة ، إنما يضيع قدرها ويخفض من قيمتها ، بينما ذلك الذى يضحى حياته يربحها ويجعلها فوق ذروة راقية من قمم الفضل والنبل

وما يعلقه الأناني أو الجبان من الحياة ، ليس هو الحياة عامة وإنما جزء حقير منها ، لأنه يحصر الحياة العامة فى حياته الفردية الخاصة . أما حب الحياة على عمومها وشمولها الإنسانية ، ذلك الحب الذى من دواعيه حب الطيبة ، والحقيقة ، والعدل ، هو الذي يتجاوز بالإنسان حدود ذاته الحقيرة ويبلغ به أبعد آفاق السمو والكمال الإنساني

من أصدق الحقائق الثابتة فى التاريخ ، كون رقيّ الإنسانية ، ونهضة العلم ، واتساع دائرة الاكتشافات ، ما كانت إلاَّ بفضل اؤلئك الذين أحبّوا الحياة فضحوا حياتهم فى سبيل خدمتها ونفعها ، فلا مراء فى كونهم أحياء بالذكر الحميد ، وبالمجد الخالد ، الذى نالوه بتلك التضحية الثمينة

ما الحيـاة كثرة الخبز التى تدفع الجوع ، ولا الهواء الذي لا يتخلى عنه الحيّ ، ولا هي الدم الذى يجرى فى العروق ، أمّا الحياة فهي السفينة التي توصل الإنسان إلى شواطئ الكمال والحقيقة والعدل

يقول البعض من المفلوكين : الكلب الحيّ أفضل من الأسد الميت . ولكن من ينظر إلى الحياة بغير تلك العيون الحولاء ، لا يشك فى كون كل الكلاب الحية لا تساوى قلامة ظفر أسد ميت . والجري دائما على هذا النهج من تقدير الأحوال ، والتميز بين الناس والأعمال ، يساعد على بلوغ الكمال من طريقه الصحيحة . والكمال ليس صورة أوهام وخيالات لا تشابه الحقائق الصادقة ، وإنما هو تصور الحقائق التى تحسها الروح ثم السعي لتحقيقها

إن من يفحص جراثيم النبات والكائنات الحية بمجهر مكبر يلحظ رسم الخطوط الأولية يكاد يكون واضحاً فيها ، ويدل على مكان وصورة الأعضاء قبل التكوّن التام . فهكذا الإنسان هو كائن حي

يحتوى جرثومته نسق تكوينه وكل مصيره . فهو على الرغم منهُ فى قيد حظه ، وطوع الإرادة الكامنة فى الحياة . والعيش على وفق مقتضيات الحياة الصحيحة وعلى نحو ما يستدعيه كل جزء حيٍّ من أجزاء الذات ، وتحقيق ما هو مضمر ثابت فيها ، وعمل الإنسان الواجب المفروض عليه ، كل هذه ما هي إلاَّ مقتضى الحياة وإلاَّ كل نصيب الإنسان منها

كمال الإنسان يجب أن يكون محصوراً ضمن ما تستطيعه الطبيعة البشرية ، ولا مراء فى أن بين هذه الممكنات ما هو مثال للتواضع الصحيح ، وعنوان للكمال الصادق. فلو أن الحبة عند زرعها فى الأرض تدرك قدر ذاتها ، لكانت وهي فى الحفرة تملكها الخيلاء وتفاخر بتأثيرها فى ثروة العالم وفى هنائه ، وحتى فى حياته . ولو أن البيضة ، مثال الحجر فى عدم الحركة ، تدرك قوى الحياة الكامنة فيها ، ما كانت أقل من الطير إعجاباً بريشه وصوته وبتحليقه فى الفضاء . فهلاَّ يجب على الناشئ أن يعرف قدر نفسه وقيمة ذاته ، وأن يقدر تأثيره الخاص فى أحوال الحياة ، حتى يدرك ما فى الإنسانية من الجمال والكمال . علم الله ما هو بحاجة إلى مرشد يدله فإن له الكفاية مما فى الطبيعة البشرية من مشاعر الابتهاج والألم والحس والإدراك

*
* *

إن حال عصر كالذى نعيش فيه ، ونتألم مما احتواه من أسباب التجزئة الظاهرة والخفية ، لحال تكره على الرغبة فى الائتلاف لأن اختلال التوازن من أخطر الأدواء التى تؤثر فى الفرد ، وفى الجماعة . لهذا يجب أن يكون منع هذا الخلل غاية كل الناس ، والبحث عن واسطة تحقيق الغاية همّ الأفراد والجماعات

الإنسان ذات لها مكانة شخصية ، فإنكار قدرها ، أو تمثلها فوق ذلك القدر ، خطأ . والتضامن الذي بين الذات الواحدة وحياتها الخاصة ، من الدلالات على صحة اعتبار الذاتية . وما يشعر به الانسان من كل لحظة ، من الشقاء أو السرور ، يدل على وجود الحياة الفردية والشعور الخاص ، ويدلّ على استقلال الذات

فأما وهذه هي حال الذات من ثبوت الوجود والاستقلال ، فلا بد من العناية بتهذيبها وتكوين كمالها . وما يحسّه الناشئ ، أو ما نلحظه نحن من ضعف الأخلاق ونقص التربية ، هو الذي يدلّ على افتقار الذات إلى التهذيب وإلى التكمل

إن حياة الذات الواحدة تشمل قوتين ، يجب أن يكون التوازن بينهما تاماً . الأولى تختص بالإدراك والشعور ، وبحسّ المؤثرات الخارجية ، وبالغذاء الجسمي والعقلي ، أو هي بالمعنى الواضح الواسطة

لإدراك كل ما هو أجنبي عن الذات وتأثيره فيها

والثانية تتضمن الحركة والمجهود والعمل ، وكل حركات القوى ونزعات الإرادة . فهي بمثابة الجزء الحساس الذى يحدث ردّ الفعل الذاتي ، نصيب الحياة الفردية من الحياة العامة الغير المتناهية

وقد يلحظ كون الإنسان عني بالقوّة الأولى وأهمل الثانيـة ، فكانت النتيجة اختلال التوازن بين القوتين ، فاختلال الحياة . فالتربية حفلت بتحصيل المعارف ، والتعليم بحشو العقل بالمواد العلمية بدلاً من تمرينه وتكوينه

والإنسان بحثه عن السعادة رمى إلى السرور الذي يجيء من المؤثرات الأجنبية عن الذات ، وإلى اللذة الوقتية ، لا إلى مصادر الهناء الصادق

فالخطأ الرئيسي فى التربية راجع إلى العناية بمضاعفة المعلومات ، بدلاً من القصد إلى تقوية الذات . وهذا هو السرّ فى اختلال نظام الحياة ، وفى وجود التباين بين أفكار الأكفاء من الناس وأعمالهم ، وبين شعورهم وخصالهم

فماذا تنفع المعلومات الكثيرة ، بدون الإرادة ميزان العقل ؟ إن الإرادة للإنسان كالخيزرانة للمركب ، فهذه إذا فسدت يختل معها سير السفينة ، مهما كان نوع مادتها وإحكام صنعها . فكذلك

الإنسان ، بدون الإرادة ، ينكّب عن سويّ السبيل ولا يُحمد سلوكه

فمن الواجب عناية الناشئ بذاته وبمجهوده ، وبقوته الجسمية والأخلاقية ، وجعل هذه الأمور غايتـه الخاصة ، لتحقيق الغرض الأساسي من الحياة

***

إنّ من يفحص ذاته ، يجد أن أحوال الناس والحياة تؤثر فيها تأثيرات مختلفة الأنواع ، عقلية ودينيـة ، على نحو ما تؤثر بهِ فى الشعور . وعلى الرغم من كون هذه الصوَر المختلفة لها أصل واحد مشترك ، فإنهُ لا يمكن مزجها ببعضها ، ولا التعويض من أحدها بالآخر ، بدون الشطط والإخطاء . والإنسان لا تثبت له صفة العقل ، إلاّ حين يميز بينها ، وحين يقدر كلّ شعور قدره الصحيح

لقد لبثت الحاستان الدينيـة والأخلاقية مجهولتين من العالم ومهملتين كل الإهمال ، ولكن الناس بدؤا يشعرون بوجودهما كشعورهم بوجود حاسة تمييز الحسن

ولما كان الكمال يقتضى نيل النصيب الأوفر من الأخلاق الفاضلة ، والاتصاف عن صحـة بالصفات البشرية الكاملة ، فإن تربيـة الإنسان حواسه ومشاعره وإرادته ، من الأمور الهامة التى لا تقل فى الخطارة عن تغذية العقل بالعلم ، والجسم بالغذاء . فإن قصَّر فى العناية بها ، فلا بدَّ من بقائهِ دون الكمال الصحيح

البحث الثالث

النظام

الكلام وهو واسطة التفاهم بين الإنسان وغيره ، ولسان الضمير والعقل ، فقد ما له من القوة وما ينتظر منهُ من الفائدة ، لكثرة استعماله فى الكذب . وما انتشر من الخداع والغش ساعد على ضعف الثقة بهِ ، وعلى نفور الآذان من استماعه ، والعقل من تأثيره فيه ، ولو كان صدقاً

ووصول الحال إلى هذا الحد من الشك ، وبلوغ الريبة إلى النفس ، يحملان المرء على نشدان وسيلة أخرى تعرب عما فى الضمير ، وتكفل نشر ما ينفع من الآراء ، وما هذه لو علم الناس إلاَّ الإقلال من القول والإكثار من العمل

العرب يحقرون كثير الكلام ، ويعتقدون فيه ضعف العقل وسقم الفكر ، وما الوقار فى عرفهم إلاَّ كثرة الصمت . ولكن الحال عندنا غير هذه ، فإن لرجال الكلام ولدولة القلم منزلة رفيعة من الاعتبار ، على الرغم من قلة جدوى القول ، ومن عدم تأثير الكتابة فى النفوس والعقول

فكم من قول مأثور ضاع مع الريح ، وقلم فياض بقيت حكمته

على الطروس ولم تبلغ إلى القلوب والعقول ؟ وما العجز عن التأثير لاحق باللسان أو القلم ، وإنما هو ناشئ من جناية الخادعين على الناس حيث أصمت الآذان عن كل ما يقال ، وأغلقت أبواب القلوب دون كل مرسل إليها . فلا بدّ للناس إذن من العناية بغير القول ، لاستدراك النافرين إلى الغاية النافعة . وليس أفضل لذلك من العمل ، فكم فيه من الوسائل تستفز الناس إلى الاقتداء بها ، والنهج على مثالها ! وكم فيه من مناهج تطبع الحكم على القلوب بدلاً من رسمها على الأوراق !

إن قائد الكتيبة ، عند الهجوم على العدو ، لا يعنى بتنسيق اللفظ وانسجام العبارات ، وإنما يندفع إلى جهة خصومه مشهراً سلاحه ، وعسكره يكتفون بصرخة منه أو بإشارة من يده ، فيرتمون فى أحضان الموت أثره اقتداء به . فكذلك الإنسان إذا تعرّف فى أحوال الحياة ما يجمل عمله من الحسن ، أو ما يحمد الإقلاع عنه من نقيضه ، خليق به أن ينحو نحو ذلك القائد فيبدأ بعمل ما ارتآه صالحاً ، ليكون الناس كالعسكر ينهجون على مثاله . ولكن الاختيار والعمل لا يكونان اعتباطاً وإنما جريا على نظام معروف

إن القوة مهما كان نوعها تماثل النار والماء ، منهما ضرر ، وفيهما فائدة . وما هذان من النار والماء إنما من النظام الذى يجرى عليه

الانسان للاستفادة منهما ، ولمنع الضرر

والنظام على ما عرفهُ الإنسان أحد حالين ، الأولى رسم سبل ووضع حدود تؤدى إلى تقييد الحياة ، وإلى جعلها آلة خاضعة لإرادة أجنبية عن الإنسان . والثانية الجري على نسق يفضى إلى قوّة الإرادة النفسية وإلى جعلها صاحبة السلطان على الذات ، ومرتبة نظام القوى المختلفة فيها على ما يكفل حفظ التوازن بينها جميعاً ، حتى لا تتعارض وتجتمع جميعاً للنهوض إلى تحقيق ما تنصرف إليهِ الإرادة من الرغبات

فالنهج على هذه الحال يجعل الإنسان غير خاضع إلاَّ لإرادتهِ المفردة ، مالكاً حرية التصرُّف بشئونهِ الخاصة كما تقتضيهِ الحياة الصحيحة ، وبذلك يستطيع حصر رغبته وكل قواه فى الغاية الحقيقية منها ، وفى العمل لنيلها

إن النوع الأوّل من النظام ، ليس مما يصلح لتربية الإنسان فإذا كان له بعض الفائدة فلا تكون إلاَّ فى تدريب الوحوش والحيوانات ، كتعليم الفيل الرقص مثلاً ، والخيل القفز ، والكلب حمل سلة الطعام . ولماَّ كانت مقتضاته ترمى إلى إفناء قوّة الإرادة النفسية ، وإلى تحويل الذات البشرية إلى آلة تديرها قوّة الغير ، بدون أن يكون للذات حق الممانعة أو الرغبة أو التفكير ، لهذا

يكون هذا النوع من النظام من أكبر الأخطار التى تهدّد الإنسانيـة وروح الحياة، ويكون حقيقاً بالإنسان النهوض إلى الرجوع عن سبله، واحتمال كل المتاعب والصعوبات التى تحول دون ذلك بصبر، بدلاً من النزول إلى مراتب الحيوان والجماد، وبدلاً من التجرُّد من الإرادة حلية الإنسان العاقل

وليس من الحكمة طرح قيود كل النظامات عامة، كما يحدث غالباً بدعوى حبّ الحرّية والرغبة فى الاحتفاظ على الكرامة الذاتية. فكل من لا يخضع للقانون طائعاً، وكل من لا عنان له يكبحه ويرغمهُ على احترام من هو حقيق بالاحترام، وكل من لا يعرف معنى الطاعة الاختيارية ولايحس ويعترف بسلطة القوانين العامة وينصاع لأحكامها، ذلك الإنسان هو دون الحيوان عقلاً وكرامة

إن كثيرًا من الأحوال يحدثهـا الإنسان، وتمثل مشاهدها للعين أو للفكر فظيعة سافلة، فتثور بسببها ثورة النفس الطيبة وتتمنى لو أنّ محدث هذه المشاغب، هادم كيان الإنسانية والفضيلة، يسام سوم الحيوان عند تدريبه، عساه أن يتأدب أو أن يرتد عن الوحشية. فكم من أيام يرى الإنسان فيها من أعمال الناس ما يمثل العار والوحشية، وما يدل على خبث النفوس وفساد الأخلاق، وعلى التجرُّد من كل دلائل البشرية! ففى مثل هذه الأحوال يتمنى العاقل

تجاوز حدود النظامات عامة ، فى تأديب اوُلئك الناس لردّهم إلى السبيل القويم والسلوك الحميد ، وإلاّ فلمنع إضرارهم بالغير

***

النظام بمعناه الصحيح ضروري فى الحياة الاجتماعية ، وصالح للفرد وللجماعة، وبدونه لا يمكن إصلاح الهيئة الحاكمة، ولا المحكومة، ولا الجيش ، عدة الدفاع عن الأمم ومنافعها ، ولا إصلاح المدرسة ولا العائلة . وبدونه يكون كل عمل قليل النفع ، إن لم يتحوّل إلى الأذى والإضرار . فالنظام للقوّة شبيه بعلم المنطق للعقل ، وبعلم الاقتصاد للأعمال المالية

ولكن الكثيرين من الأسف لا ينظرون إليه هذا النظر الصادق ، فبين الناشئين ، من ذوى الذكاء الحادّ ، من يتوهّم إمكان التجاوز عن كل الوسائل النظامية ، وإمكان الوصول إلى الغاية المنشودة بدونها . ولا مراء فى أن مثل ذلك الواهم فى ظنه ، كالأحمق يتوهم إمكان البلوغ إلى قمة الجبل بدون ارتقاء السبيل إليها ، وبدون احتمال عناء الارتقاء بين الصخور

فهذا الرأي وأمثاله من ضروب النظر الكاذب من المصائب التى تربك حال الإنسانية ، وتمشى بها إلى الخلل والفوضى . وجهل الإنسان وجوب التقيد بمقتضيات النظام النافع ، وخلو نفسه

من روح الطاعة الاختيارية ، يدلان على جهله أساس الحرية الصحيحة ، ومبادئ علم الأخلاق

فلو أن الناشئ يدرى مقدار الانحطاط الأدبي الذي يسقط إليهِ كل ذى إرادة ضعيفة ، حين ينصاع لمطالب النفس الخبيثة ، وحين تندفع هذه مع كل شهوة أو تطاوع رغبات الغير ، وحين تؤثر فيهِ كل الأحوال الحادثة ، لو أنه يقدّر ما ينحط إليهِ من الدركات بالانسياق مع هـذه الأحوال المتقلبة ، لهاله عمق الهاوية وخطر الانزلاق إليها ، ولرغبت إرادته الميتة فى الحياة ، ولكفت نفسه عن التورُّط فى ذلك الطريق المنحدر ، ولطلب ذلك الإنسان المغرور طيب العيش حيث يتوفر ، والهناء من حيث يضمن نيله

من الصعب على النفس لأول الأمر حصرهـا الفجائي ضمن حدود النظام وتقيدها بمقتضياته ، ولكن النتائج التى تصل إليها بذلك تغريها باحتمال الصعوبة وبالاستهانة بكل عناء

إن قوّة النفس ، كسائر القوى الذاتية الأخرى ، خاضعة لناموس التكوُّن . فهي تتدرج من اعتياد الأمور السهلة إلى ما هو أكثر صعوبة ، حتى تعتاد الأمور الجسام وتبلغ نهاية القوّة . وهنالك وجه شبه بين الجندي وقوّة النفس ، فإن المحارب النظامي يتقوّى بالتعليمات والنظـامات العسكرية ، حتى يكون صالحاً للمحاربة

النظامية . فكذلك قوّة النفس فى معترك الحياة ، تحتاج إلى الوسائل المؤدية إلى قوة الإرادة ، حتى يكون لها الشأن فى العمل بدلاً من الرضوخ إلى غيرها من القوى الأجنبية عن الذات

فالأكل والشرب والرقاد والتنزه والعمل ، كل هذه الأحوال يمكن أن تتم باختيار الإنسان ، ولكن الرقاد مثلاً يجوز أن يكون على الرغم منهُ بداعي الكسل . فمن وعى هذه الحقيقة ، وقاس عليها سائر أمور الحياة ، لا يصعب عليهِ إدراك ما تجب ملاحظته فيها من الدلائل على ضعف أو قوّة النفس

فالعمل مثلاً يمكن أن يكون طوعاً لرغبة الإنسان فيه ، كما يجوز أن يكون على الرغم منهُ بدافع الحاجة إلى الأجر . والعمل لمجرد نيل الحاجة من الطعام والشراب ، عمل إرغاميٌّ ، الفضل فيهِ للجوع والعطش لا للإنسان ذاته

فالإنسان إذا لم يكن هو المتصرف بشئون الحياة ، يخضعها لإرادته بما فيها من المؤثرات الخارجية ، ومما فى ذاته من الرغبة والشهوة والشغف وحبّ الراحة ، لا يكون لحياته معنى ولا لوجوده قيمة

وأفضل وسيلة لبلوغ الإنسان هذه الأمنية هي تقويته ذاته بكل الأسباب ، حتى تخضع أحوال الحياة مع الاستمرار لإرادته القوية ولعقله الحكيم . ولا شيء يساعد على التقوية مثل اعتياد الشقاء

والحرمان والتألم، فقد علمتنا التجاريب أن النفوس الكبيرة والهمم العالية ما كانت ولا ظهرت، إلاَّ بعد أن شحذتها الهموم وصقلتها مطارق الشقاء

إن تعويد اليد حمل الأثقال فى كل يوم يفضى بها إلى رفع أثقال عظيمة، لم تكن تستطيع رفعها لولا التمرين اليومي، فكذلك تعويد الإرادة احتمال المصاعب والصبر، يبلغ بهـا حدّ القوى المنشودة. والرغبة فى حكم الإنسان ذاته تقتضى تعهد كل قوى الذات فى الجسم، كما فى العقل، وتكوينها جميعاً بالتمرين المستمر وبالشحذ، كما يفعل بقطعة السلاح حتى لا تترك طعمة للصدأ والأوساخ

وإذا وصل الانسان إلى حكم إرادته ونفسه، حكم الفارس عنان جواده، يكون صالحاً لمعارك الحياة، ولم يعد فى حاجة إلاَّ إلى الروح التى تحمسهُ، والتى تحدوه إلى حمل سلاحه وخوض المعركة

وما هذه الروح إلاَّ الإرادة العاقلة، التي تنزع إلى ما فى الحياة من أسباب الفضل والمجد، وإلى كل ما تحبّذه الإنسانية. فتقوية الحياة الذاتية بمبادئ العدل، وبالقوّة، والطهارة، والصحة، وبأسباب السرور الصادق، إنما هي تقوية الحياة العامة، وتأدية مقتضياتها

فنتيجة النظام إنما هي تكوين وتهذيب طبائع الإنسان، على صورة تجمع كل قوّات الذات باختيارهـا لتحقيق أغراض الحياة

الصحيحة، ولكراهة ما يخالفها والنفور منهُ والعمل لملاشاتهِ بدون تردد وتقصير

إن كراهة الشرّ تجيء مطاوعة حبّ الإنسان الخير، فمن لا يعرف ماذا يكره، لا يعرف أيضاً ماذا يجب أن يحبّ. فالحب والكره هما الروح المحسة في المعارك الحيوية، وكل من امتاز من خدام الإنسانية بكبر النفس وعلوّ الهمة، إنما دلّ عليهما بتمييزه بين ما يجب الولع بهِ من مبادئ الحياة، وما يحسن مقته وتسفيهه من أحوالها الكثيرة

وهذا التمييز، بما يتبعه من قوّة الحبّ أو الكره، هو منشأ النظام العام، والسلوك وفقاً لمقتضيات الحياة. ونتائجه الطيبة الإخلاص، والطاعة الاختيارية، والرغبة في الإفادة، كلها من أركان الحرية الصحيحة، بل هي من أسباب الهناء والسعادة الصادقة

البحث الرابع

العمل

كل حركة لغاية عمل، والغاية التي تقصد إليها الحركة أو تقف عندها هي ثمرة العمل. فإذا كانت الحركة طائشة كان العمل على غير جدوى، وتعذّر تحوله إلى ثمرة ناضجة. وعلى قدر قوة الحركة

العاملة وإحكامها تكون نتيجتها من الدنو من الغاية أو من البعد عنها

إن هذا الوجود من عمل الخالق ، فالخالق مع جلاله يعمل ، والذرة فى الجسم لها نصيب من الحركة الجزئية فى المجموع الشامل، فالذرة مع حقارتها تعمل أيضاً . ولما كانت الحركة هي دليل الحياة ونتيجتها هي العمل ، كان العمل دليلاً على الحياة ، وكان عدمه حجة على فناء الحياة . ولما كانت الحياة مقترنة طوعاً أو كرهاً بالحركة ، فإن من إصالة الرأي أن توجه إلى غاية وجيهة ، بدلاً من أن تكون عبثاً لغير غرض ، وعوضاً من أن ترمى إلى غرض طائش

قالوا : « البطالة تقتل » . وذهب المترف إلى سفاهة هذه الحكمة المأثورة . وإذا نظرنا إلى الحال بعين الحقيقة الصادقة ، رأينا أن استحالة العمل غير متيسرة على الإطلاق ، وما عدم العمل إلا عمل غايته الفناء . فالمترف بتنحيه عن توجيه حركة حياته إلى غاية بخصوصها يتركها تقصد بطبيعتها إلى العدم وإفناء الحياة سدى

الحياة قوة مدخرة فى الذات تنفقها الحركة حتما ، فإذا لم تنفق بتدبر ولحكمة منتجة نفدت عبثاً ومن دون طائل . إن البخار المودع فى القاطرة مثلاً ، إذا لم ينفق فى تحريك العجلات لبلوغ غاية ما ، وإذا استمرت القاطرة فى مكانها ، يبرد البخار عند نفاد الحرارة المدخرة ، وتكون هذه قد ضاعت عبثاً . فاذا أنفق الوقود والماء

والعمل فى سبيل تحويل هذه المواد إلى « قوة » ، ثم حبست هذه « القوة » ، فلا بد من كونهـا تفنى مع مرور الوقت . وليس معنى فنائها أنها ضاعت بدون عمل ، وإنما الحقيقة أن هذه القوة بدلاً من أن تنفق فى العمل المنتج ، وهو تحريك العجلات ، أنفقت عبثاً فى مقاومة القوة الحابسة ، فالقوة عملت ولكن على أعدامها وفنائهـا ،

وكذلك يعمل من لا يعمل

والعمل إلى درجة ما نافع غير ضار ، وهو وإن كان يفنى شيئاً من قوه الحياة فانه يعوض منها ما يجددها أو ما يحفظها من النفاد السريع ، وهذه هي الحكمة المرادة من الحث على العمل . فإذا كان العمل شاقاً فإنه يحتاج بطبيعة الحال إلى إفنـاء جانب عظيم من قوة الحياة المدخرة ، على شكل يتناسب مع صعوبة العمل ، وما يشعر به الجسم من النصب إنما هو نتيجة ضياع القوة بسرعة غير مألوفة . وما يعقب العمل الشاق من الهمود والارتخاء ، دليل على

عدم الاستعاضة من القوة التى نفذت قدرَها من نتيجة العمل

كل ما تألفه النفس يكون حادثاً عليها لأول الأمر ، ثم يتحول بالاستمرار عليه إلى عادة تطفر إليها النفس بدون تدبر ولا فكر ، فإذا ما منعت عنها شعرت بنقص فى أسباب هنائها وراحتهـا .

والعمل كـكل أمر آخر يقدم عليـه المرء مرغماً لأول الحال ، ثم

يعتاده بالاستمرار عليه فلا يعود يشعر بالصعوبة الأولى ، ولا يدرك كونه من لذائذ النفس إلا حين يمنع عنه ، فإنه إذ ذاك يشعر بنقص واضح فى معالم حياته وأسباب هنائه ، ويسأم البطالة ويملّها ويراها من وسائل الإعدام البطىء ، فيرجع إلى الحقيقة المأثورة : « البطالة تقتل »

أما وهذا شأن العمل فى الحياة ، فإن من العقل قصره على الفائدة والانتفاع ، وجعله وسيلة لحفظ الحياة لا لإفنائها . فالحال تستدعى حصر زمنه وتحديد نوعه ، على صور تتناسب مع قوة الإنسان وعمره . ويحمد تنويع الغاية من الحركة ، فإذا توجهت وقتاً ما إلى العمل المنتج يحسن أن تصرف بعد ذلك إلى الرياضة وإذا كان العمل الدائم يقتضى إنفاق القوة الجسمية ، وجب مع هذه الحال ترويض القوة العقلية بالعمل أيضاً ، وإذا كانت العمدة فى العمل على العقل حق على الإنسان تنشيطه حيناً ما بالراحة وبالرياضة البدنية . وحين ترتب أوقات العمل ونوعه بنسبة تتفق مع لحظات الرياضة وأوقات الراحة ، أمكن أن يكون العمل من لذائذ الحياة ومن أسباب الهناء

وليس العمل عاراً على الفتى المترف ، فإنه إذا لم يكن بحاجة إلى العمل ابتغاء كسب الرزق ، فهو بحاجة إليه لتوفير قوة الحياة

من التبدد فى سبيل الفناء والعدم . ولو خطر للمترف المترفه أن يقارن بين قوته وقوة وصحة العامل فى الحقل مثلاً ، لهاله وضوح الفرق بين القوتين ، مع تباين درجات الغذاء والشراب وكل أسباب الراحة والاغتباط . وما كان هذا التفوّق ليكون لو أن الغنيّ المنعم يعنى بالعمل وبصرف قوة الحياة ، المتبددة مع مرور اللحظات ، فى تجديد هذه القوة ، وفى الاستعاضة منها بغيرها من نتائج العمل المثمر

قالوا إن الوقت كالسيف إن لم يقطعه الإنسان قطعه . فالعاقل يقطعه بالعمل أيّ كان ، ومن يعمل يجد أسباب العمل لا يكفيها الوقت المحصور فى اليوم الكامل ، أما المستكين إلى البطالة فإنهُ يسأم طول الوقت ، ولا يدرى ماذا « يعمل » ليفنيه ، ولو هو اهتدى إلى الصواب ما وجد غير العمل سبباً لفنائه . فهل للناشئ أن يكف عن تمنى البطالة وعن حسبان كونها من أسباب الغبطة والسعادة ؟

البحث الخامس

السرور

السرور حال تطرأ على الإنسان ، فتنعش نفسه وتبهجها وتنشطها ولما كان واثقاً من فائدة تأثير هذه الحال فيه فهو يطلب أسبابها ، وينهض لنيل كل البواعث عليها ولتوفير كل منتجاتها

إن السرور الصادق لا يجتمع مع الشجن فى النفس المفردة فى اللحظة الواحدة ، ولهذا ينقب المرء عما يجلو عن صدره ما يثقله وعن نفسه ما يكدرها ، ثم يتدبر أسباب البهجة والفرح ليشعر بلذة السرور وليحس بهجة الحبور

الحياة ملأى بالأحوال المتباينة ، والإنسان كثير المطامع غني بالآمال ، يبغى أن ينال ما طمع بهِ ، ويشتهى، أن تحقق أحلامه ، أماَّ وقدرته تقف عادة عند بلوغه إلى البعض منها وتقصر عن البقية المرجوّة ، فإن استياءه من العجز يربو على رضائه من النيل ، ولذلك تكون أوقات شجنه أطول من لحظات ابتهاجهِ

ولما كانت النفس تطمع بما تظنهُ من البواعث على الهناء ، فانها بكدحها إلى مضاعفة ونيل أسباب السرور تخلق أسباب العجز عن إرضاء شهوتها فالبواعث على الاستياء والشجن . ولكن الرغبة إلى الهناء تقوى مع كثرة الحوائل دونهُ، ولعجزها عن نيل أسباب السرور الصادق، تنصرف إلى نوع من السرور الكاذب تستعيض بهِ من ذلك

ولما كان طرد الهم عن الصدر يستدعى نسيان العقل إياه ، ولما كان العقل لا يزول منهُ تأثير حال صادقة ما بقيت أسبابها واضحة فيهِ تنبهه إليها ، فلهذا يقصد الكثيرون من الناس ، لا إلى محو أسباب الحال المشجنة ، وإنما إلى تخدير العقل وإخلال ميزانه

المقدر، حتى يتنبه إلى الحقيقة فلا يتصوّر الحال السيئة على أصلها، فيغفل عن تأدية وظيفته، ويكف عن حمل النفس على الشجن ما دام تحت تأثير هذه الحال الجديدة من التحذير ومن الغرور والتغرير

فالمخدرات والمسكرات ليست من البواعث على السرور والابتهاج، وإنما هي من الوسائل التي تطيش العقل عن تقدير الحال الصادقة حيناً ما، حتى إذا ما زال تأثيرها فيهِ عاد إلى حاله الأولى من التمييز، وردّ النفس إلى موقفها الحقيق بها من الرضاء أو الاستياء. وليس ما يطرأ على العقل من الإغفال نسياناً بالمعنى الصحيح، وإنما هو نوع من الجنون الوقتي يجئ بتوفر أسبابه المختلقة، ويزول بزوال تأثيرها فى العقل. والإنسان فى فترة هذا العارض يشبه المجنون تماماً، من حيث التميز والإدراك والحس والسرور أو الاستياء، وما شعور المجنون بالذى يؤثر فى النفس التأثير الصادق، ولا هو بالذى يجعلها تحس بالإبتهاج ولذة السرور

أما إمتاع النفس بشهوتها، بدون إطاشة العقل وإخلال ميزانه فانه لا ينيلها ما تشتهى من السرور الصادق، وإنما يرضيها ببلوغها حدّ ما طمعت بهِ وتاقت إليـهِ، حتى إذا ما انقضت تلك اللذة الوقتية، رأت أنها عند حالها الأولى من الرغبة إلى السرور، وأن ما نالته لم يكن بالذى يقنع ويدوم الرضاء منهُ

هذه حقائق نظرية فى تقدير المغرور الباقى تحت تأثير المؤثرات المطيشة، وصادقة ثابتة يقرها من علمته التجاريبُ التمييزَ بين غث أحوال الحياة وثمينها . وما يتعلمه المرء من الاختبار لأكثر دنوًّا من الصواب من كل نظريات وعلوم المدرسة . فالناشئ فى غير حاجة إلى التورط فيما شطت إليـهِ العقول الطائشة ، ليصل إلى عرفان الحقيقة ، وما عليه إلا أن يتدبر أحوال من زلقوا قبله على تلك الأحادير ، ليعرف بالمشاهدة والنظر ما لم يصل إليهِ غيره إلاَّ بتبديد الحياة والتعرض للخطر، والعاقل من تكفيه الموعظة وتقنعه العبرة . إن السرور وإن كان حالا حادثة إلا أنها حال نفسية ، تنشأ فى النفس وتفنى فيها . وما دامت الحوائل التى تحول دونهـا تجيئ من كثرة أمانى وتضاعف الرغبات ، فإن حصر هذه الأخيرة وضآلها تزيل تلك الحوائل ، وتدنى من الغاية المنشودة ، وما هذا العمل إلاَّ عمل النفس فى ذاتها

لقد أدرك هـذه الحقيقة أهل التصوّف ، فالفرد منهم بزهده عن كل ما فى الحياة من المغريات يدفع كل العقبات من طريق النفس عند نهوضها إلى السرور والابتهاج . وما يشعر بهِ ذلك الزاهد من الغبطة واللذة ، لا يشعر به من يملك أموال العالم، وينفق منها بدون حساب لتوفير أسباب اللذة الفانية والسرور الكاذب

خاتمة

من يلقى نفسه فى اليم لا يحق له أن يشكو البلل ، والهيئة الاجتماعية حافلة بكثير من أنواع التغرير والفساد ، فالناشئ حين يخرج من المدرسة ، وترغمه أحوال الحياة على الانخراط فى سلك ذلك المجتمع الفاسد ، تؤثر فى نفسه وأخلاقه نفوس وأخلاق من يعاشرهم من الناس على الرغم منهُ . والشباب جنون ، والفتوة تمنع عقل النابتة من الحكمة الكهلة ، والحياة مزلق ينحدر عليهِ إلى هوة السقوط من لم يحسن الاحتراس والاحتراز ، فمع كل هذه المخاطر التى تحوط الفتى ، لأول دخوله باحة الحياة الاجتماعية ، لا تحق مؤاخذته على عثراتهِ ، ولا يجمل لحيُه عند كبواته

إن الهيئة الاجتماعية ، لما اشتملت من أنواع العيوب والمفاسد ، خطرٌ على اللاجئ إليها ما دام غافلاً عن هذه العورات . والإنسان عند طلبه أسباب الحياة يتوسط الخطر ، ويكون أدنى إلى السقوط منهُ إلى السلامة ، وما يناله من قوة الاختبار يدفع ثمنه من لحظات هنائه وراحته ، بل ومن سمعته وخلقه وكرامته الذاتية . ومع عرفان المرء هذه الحقيقة ، لا مندوحة له من معاشرة الذين يعيب عليهم السلوك والخلق والعادات ، لأن العيوب جامعة لم يسلم منها فرد

بخصوصه ، والنقص الأدبي شامل لم يخلُ منهُ حاضر ولا بادٍ . ومن يطلب منع الناشئة من الالتحام مع بقية الناس ، عند بلوغهم شأو الرجولة ، إنما أهون عليه طلب النار فى الماء وأيسر منهُ بقاء الثقل فى الفضاء

أما والحياة تقتضى المخالطة فإن من العبث الشرود من مقتضى الحال ، وما على طالب السلامة إلاّ تدبر أسباب الحيطة من الانزلاق ، وإلاّ الابتعاد عن مواطن السقوط والفساد على قدر الاستطاعة ، وإلاّ التبصُّر عند كل عزم وعند كل بادرة ، ومن يُغفل الوقاية والاتقاء ، فتزل قدمه بنفسه ، ليس له أن يلعن الاجتماع وما اشتمل من العيوب ، وإنما له أن يرجع باللائمة على نفسه وعلى عقله

إن وجود الفساد فى الهيئة الاجتماعية لا يقتضي إفساد كل امرءٍ خلقه ونفسه ، نعم إنهُ يغرى بالخسر ويساعد على السقوط ، ولكن من يحزم رأيه ويقوّى إرادته ، يعوّدها مقاومة المغريات المتلفة ، ويستطيع أن يحافظ على سلامة نفسه وعلى صيانة خلقه من تطرُّق الفساد إليهِ

ألقِ بحجر من الماس فى الوحول ، وألقِ معهُ فيهِ بقطعة من الحرير ، فهذه يفسدها تأثير الوحل فيها ، ولا تعود أبداً إلى حالها الأولى من اللطف وحسن الرواء مهما عني بتنظيفها وغسلها ، أما

قطعة الماس فإنها تحفظ حالها من الصحة والنفاسة ، لشدة صلابتها وتحجرها . كذلك الإنسان إذا كانت إرادته ضعيفة ، وخلقه رخواً مرناً ، تؤثر فى نفسه عوامل الفساد ، بخلاف ما إذا كانت الإرادة قوية والنفس كاملة ثابتة ، فإنها تقاوم طروء كل حادث سيء ولا تترك له أثراً فيها ، فتبقى سالمة من التلف وسط ما يحوّطها من أسبابه الجمة

ليس يكفى أن يتعلم الناشئ فى المدرسة ، فإن ما يتلقاه من العلوم تنحصر قوّة تأثيره فى العقل فتنميه وتقويه ، وفى المدارك فتتسع ، وفى الفكر فيحسن التميز . ولكن العلم كما يكون واسطة للخير والنفع ، يمكن أن يتخذ آلة للشرّ والإيذاء ، فيجب أن يكون للعناية بالنفس المقام الأول فى التربية والتعلم ، فإن النفس إذا صلحت ، وإذا منع تطرُّق الفساد إليها فى نشأتها ، تألف الكمال وتنفر من النقص ، فلا تعود تنحط من أوجها ، ولا تتسفل بعد رفعتها

ومن يتبحّث أحوال الذين عرفوا بين الجماعات بكمال الخلق والنفس ، والذين حافظوا على المبادئ الفاضلة فى كل أدوار الحياة ، يجدهم جميعاً من الذين عني بتربيتهم فى الصغر تربية نافعة ، وعاشوا فى بيئة فاضلة ، ولا يمكن أن تتوفر هذه الأحوال إلاَّ فى أبناء البيوتات الكريمة والأُسر النبيلة التى تحافظ على كرامتها

قد يوجد بضع نفر فى الجماعة ، من أبناء العائلات المتوسطة

أو الفقيرة، يحرزون تلك الصفات الفاضلة، ولا يؤثر فى أخلاقهم ما يرون حولهم من العيوب الأخلاقية الفاشية والعادات المستهجنة. وليس وجود هذا النذر يدحض التخصيص الأول، ولا هو بالشذوذ الغريب، ولو فحص الإنسان أمثال اؤلئك الفضلاء، لوجد لهم من قوّة الإرادة ما لا يجعل مكاناً للعجب، ولعرف لهم من إصالة الرأي وسعة المدارك ما يساعد الإرادة على اختيار الطريق الأسدّ، وعلى اجتناب مزالق الحياة

إن النفوس جميعاً، قبل تطرُّق الفساد إليها، يمكن أن يقال بحقّ أنها من معدن واحد، ولكنّ ما يطرأ عليها، من التأثيرات الحادثة، هو الذى يجعلها خبيثة أو طيبة. فالشرّ والخير اكتسابيان، وكلاهما ثمرة ما يغرس فى النفس من الإفساد أو التربية الصحيحة

فليس نبل العائلة أو عدمه هو الذى يميز بين النابتة، وإنما ما فى البيتين من التفاوت فى الخلق والتربية والكمال. ولما كان لِما يعهده الطفل من الأحوال والألفاظ، لأوّل عهده بالفهم والإدراك، تأثير فى نفسه وفى عقله، لذلك كان الفارق عظيماً بين من ينشأ فى بيئة فاضلة ومن يترعرع بين من لا خلاق لهم. وعلى قدر حسن أو فساد خلق من يحوّط الناشئ من الأفراد يكون حظ خلقه من الكمال أو النقص، ونصيب نفسه من الطيبة أو الخبث

إن الحياة تجمع بين الأفراد، تفاوت الاقدار والمراتب، والمرء يشقى فيها أو يسعد، لا بسبب تفاوت الحظوظ، وإنما برغبته إلى الشر أو إلى الخير. فإذا كان له من عقله قوة تحسن التميز والاختيار، ومن نفسه إرادة قوية، يحسن تعرّف مواطن السعادة فيقصد إليها بدون تردد ولا عياء، وإلاَّ فانهُ يتخبط فى الحياة كالضرير يتلمس بعصاه الطريق. إن الاختبار قوة تفضل العلم، والآلام والشقاء تصهر النفس فتطهرها مما علق بها من الخبائث، كما تطهر النار المعدن مما علاه من الصدأ، والتجارب تنير البصيرة، كما تنير الشمس الكون. ولكن من ينتظر أن يتلقى دروسه من الدهر، يبدد حياته فى الشقاء والتعس، حتى إذا ما وصل بهِ الألم إلى حد التميز، وصدق النظر والحكم، يكون قد فني عمره فلا يستفيد من حاله الجديدة غير الأسف على ما أتى من الذلاَّت، وغير التحسر على عمر فني وفات

فالحقيق بالعاقل من الناشئين الرضاء من الحال، على ما فيها من خير وشر، من عيوب ومن حسنات، واختيارُ ما فيهِ النفع، وترك ما لا يتفق مع الفضل. فإذا جاءت التجاريب وأدنته من صدق النظر والتقدير، ساعدتهُ على التكمل والتجمل، وأبرزتهُ على مراتب الفضل والحكمة، يحمد فعله ويحترم رأيه، يُبتغى منهُ النفع ويرقب منهُ الإثمار

فهرست الكتاب

٦

صـ	بقلم المترجم	المؤلف	
٥	روح الاعتدال	شارل وانير	قررته نظارة المعارف العمومية
٥	غاية الانسان	چان فينوت	
٦	الناشئة	شارل وانير	
٦	الغرور (تحت الطبع)	ماكس ناردو	

يضاف أجرة البريد للخارج قرش صاغ عن كل كتاب